الخِدمة

الجزءُ الثّالِث

المحتويات

الْبَابُ الأَوَّلُ

نحو خدمة كنسية أرثوذكسية

الفَصْلُ الأوَّل
التربية الدينية

إننا شعب متدين محافظ، لنا تقليد موروث صالح، ولنا أن ننتفع وأن نفتخر بحق بهذا التراث الذي خلَّفه لنا آباؤنا القديسون العلماء الملهمون.

وكل من يطَّلع على تعاليم الآباء (ومعظمها لم يُترجم بعد)، يدرك أهمية هذا التراث لما فيه من عمق روحي وفلسفي — ويندهش كيف لم ينتفع به أصحابه حتى الآن.

ويؤكد العلماء أن هذه التعاليم لو عُرضت علينا عرضاً سليماً بلغتنا، فسوف تجدد عصراً ذهبياً لمصر — لن يقل عن عصر القديسين الأوائل، لأن الروح الشرقية العميقة والوجدان القبطي ذخيرة حية فينا لن تفنى!

أليس من المدهش والمحزن لأرواحنا جداً أننا نتغافل عن هذه الحقائق ونجري وراء المعارف الدينية الحديثة في بلاد ليس لها من العمق والتراث والتاريخ في المسيحية ما يوازي قدراً ضئيلاً مما لكنيستنا المجيدة، بل ونتتلمذ لنظم الدين والتربية في بلاد هي أحوج ما تكون لتعاليمنا، بل وهي من أشقى ما يكون لفقر شعوبها من الشاعرية الدينية والوجدان الروحي العميق؟

إن تلك البلاد التي تحاول أن تعلِّمنا كيف يمكن صنع القديسين، وبأي أسلوب تُعلَّم المسيحية، تصرخ من عدم نفع برامج التعليم الديني ونظم التربية الدينية التي ابتكروها في صَدِّ التيارات التي تجتاح شبابها من إباحية ومادية وإلحادية وكل بدعة جديدة شيطانية!

فمثلاً بالنسبة للشباب الأمريكي، رغم مجهودات رؤساء الدين التي

تعضدها ملايين الدولارات وجهابذة الفكر وأحدث طرق التربية، ينصرف الشباب هناك عن الإيمان بالله بصورة مزعجة للغاية.

لمـــــاذا؟

لأنه مخدوم في نطاق الدين خدمة ممتازة — ولكن فقط حسب البرامج العقلية والمنطق والبراهين العلمية. فعندما يصطدم بمنطق العلوم التجريبية ونتائجها الواقعية الجبارة يرى أن منطق الدين — كما قُدِّم له — ضعيف! فيشكُّ.

ثم يصطدم مرة أخرى بحقائق الحياة العملية فيتكشَّف له اختلال موازين الرحمة والعدل في توزيع الكوارث والآلام، خصوصاً إذا أصابه شيء منها ولم يستطع أن يعلله تعليلاً يرتضي به عقله، فيرتدُّ.

وهو مظلوم حقاً لأن برامج التربية الدينية سلمت إليه سلاحاً لا يصلح لفحص الحقائق الروحية — أي الفحص العقلي.

كيف يواجهون الدين.

ولكن ليست البرامج الدينية الخارجية وحدها هي التي لا تناسبنا ولكن نفس طرائقهم في التفكير وأسلوب أخذهم للحقائق الدينية تختلف عن طرائقنا وعن أسلوبنا تمام الاختلاف.

فالعقلية الغربية عقلية تحليلية، فالغربي إذا سمع عن معجزة لا يكتفي بتصديقها بل يحاول أن يفهم لماذا عُملت! بل إنه يحاول أيضاً أن يعرف كيف عُملت! وهو يواجه هذه الظاهرة الدينية على نمط طريقة العقل في مواجهة حقائق العلم. وإننا نلحظ بوضوح في جميع مؤلفاتهم مَيْلهم دائماً

إلى التحليل، وهم مقتدرون فعلاً في هذا المضمار، ولعلهم أقدر من يحلل الشخصيات ويكتب تراجم حياة الناس.

وعلى هذا الأساس التحليلي توضع برامجهم التربوية، وتتشكل عقولهم وتبتكر نظم التعليم الديني عندهم.

أما في الشرق.

فإن الشرق يفهم الله والدين بقلبه ويخضع له بشعوره ووجدانه ولا يعتمد على البراهين العقلية كثيراً، بل إنه لا يلجأ أيضاً للاختبار والتجريب وإنما يستخدم حاسته الروحية في تفهم الحق وفحصه وقبوله. وهو بذلك يفهم الله والدين فهماً **صحيحاً عميقاً** لأن طاقة الإحساس الروحي هي الطاقة الأصيلة الوحيدة في الإنسان المخصصة لمعرفة الله والحق. وهي أيضاً أعمق من العقل وأوسع دائرة، وأقدر على التثبُّت. وهي إذا آمنتَ مرة ولمستَ حقائق الله والدين، فهيهات للعقل أو العلم أو المخترعات أو الشيطان أن يزعزعها.

لذلك يلزم أن تقوم برامجنا الدينية والتربوية أولاً على أساس وجداني روحي محض، أما استخدام الوسائل العلمية، وتقديم البراهين العقلية، فليس هو المنهج الصحيح للتربية الدينية.

وثمة ملاحظة نراها في شبابنا، أنه يمر أحياناً بفترة من حياته تختل أمامه فيها القيم الروحية والدينية وذلك تحت ظروف كثيرة حتى يخيل لذويه ومعلميه أنه ضل الطريق نهائياً وأنه يعسر إقناعه بالدين بشتى الطرق. ولكن الواقع والمشاهَد أنه بعد مدة يعود من تلقاء نفسه.

هذا بعكس شباب أوروبا وأمريكا الذي إذا خرج من حظيرة الدين

يكون خروجه مؤكداً ودائماً. أما سبب الخلاف فهو راجع في الواقع للفارق في طريقة قبوله للدين، فهم يقبلونه كما قلنا بعقولهم الفاحصة بأدلة وبراهين، أما نحن فنقبله بالإحساس والوجدان، باقتناع الروح الداخلي، فإذا هم نبذوه فإنما ينبذونه عن اقتناع عقلي أقوى من الاقتناع العقلي الذي قبلوه به، وحينئذ هيهات لهم الرجوع.

أما شباب الشرق فإنه إذا نبذ عنه الدين فإنما ينبذه بعقله، ولكن لمسات الروح التي قَبِل بها حقائق الدين من قبل تظل حية في أعماق وجدانه، تتحكم في حرية عقله إلى أن تقوده يوماً إلى الرجوع إليها خاضعاً في ولاء أشدّ وإيمان أحرّ.

خلاف في المنهج:

ولكن هناك خطورة على أية حال في اقتباس الطرق العقلية للتربية الدينية، واستخدام البراهين والمحاجاة والتحليل التي يستخدمها الغرب في تثقيف أبنائه لمواجهة التيارات الإلحادية هناك، كي نستخدمها نحن لأبنائنا الذين يعيشون بوجداهم الروحي الموروث.

إنَّ في استخدام هذه الوسائل تنشيطاً لقُوَى التحليل والتشكك العقلي، وتغليباً لها على موهبة الوجدان الصالحة والكفيلة لأداء مهمة تقبُّل الروح والدين والله.

ولن تستطيع هذه البرامج مهما بلغت من الإتقان والتمشِّي مع وسائل علم النفس الحديثة أن تنجح يوماً في تغذية قلب الشاب الشرقي، لأن طبيعة الشرق في تفهُّم الله والدين لا تقوم على أساس التحليل العقلي المحض، وإنما تقوم وتعتمد على الوجدان والروح، كما قلنا، وبغير طريقة

التحليل بل بعكسها تماماً، أي عن طريق التركيب والتجميع بناء وتنمية مدارك الروحيات = Synthesis = edification التي تكوِّن طاقة قوية جبارة للإبداع والخلق.

فمثلاً لو سمع الشرقي عن قديس بارع مقتدر بالروح، فإنه يتقبل القصة بوجدانه وينفعل انفعالاً روحياً، وتنشط قوى النفس عنده للتجميع والتركيب لإبداع نموذج مماثل، سواء في شخصه أو في أحد أولاده أو مريديه.

بعكس الغربي كما قلنا الذي ينفعل انفعالاً عقلياً تحليلياً، فيبدأ يحلل شخصية هذا القديس ليُخرج لنا كتاب ترجمة عن حياة ذلك الإنسان.

ولهذا نجد الشرق قد امتلأ بالقديسين أما الغرب فقد اكتظ بالكتب.

عدم استقرار:

إن عدم الاستقرار في البرامج الدينية، وسرعة استخدام الطرق الجديدة للتربية ظاهرة ملحوظة في بلاد الغرب عامة، وفي أمريكا التي فاقت الكل، ذلك لأن العلم يتنازع لديهم دائماً مع الدين، والسبب واضح كما قلنا، فالعقل هو الوسيلة التي يستخدمها الغربي لتفهُّم كليهما وبطرائق واحدة وأسلوب واحد تقريباً.

أما في الشرق، فنظراً لاختلاف حاسة الدين عن وسيلة العلم، يمكن القول بعدم وجود هذا التنازع بصورة جدية. فمهما تقدم العلم فإنه لا يزعزع الإيمان بالدين — لأن هذا موجود في القلب يُلهم الحياة، ونطاقه أبعد ما يكون عن نطاق العلم؛ إلا إذا استثنينا بعض أفراد تلقوا العلم في الخارج أو تثقفوا بالثقافة الأجنبية فتنشطت قوى النقد العقلي والتحليل

عندهم، وحتى هؤلاء لن تجدهم جادين في تشككهم وإنكارهم.

إذن فليس من العدل، بل ليس من الحكمة، أن نتبارى مع الغربيين والأمريكان على الخصوص في استخدام طرائق تربيتهم الحديثة، كما لا يمكننا أيضاً أن نتمشى معهم، لأن قدرتهم في التجديد والاستحداث شديدة، حتى أن المصري قبل أن يصل إلى شواطيء بلاده عائداً من هناك مزهواً بشهاداته وقد ملأ قلبه وزحم عقله بأحدث طرائق التربية، أقول قبل أن يصل إلى بلاده يكون الأمريكان قد استحدثوا طرقاً جديدة على نظريات جديدة، وأصبحت الطرق التي في عقل القادم من هناك عتيقة غير صالحة في نظرهم.

وللأمريكان قدرة عجيبة على نبذ القديم وقبول كل حديث بسهولة فائقة. فهم قادرون فعلاً على التغيير والاستحداث وقد صار ذلك طبيعة لهم لازمة لتتمشى مع أساليب الحياة هناك ليس في الدين فقط بل في جميع نواحي المعيشة.

منهجنا في التربية.

أما نحن فليس من الصالح أن ننبذ القديم في أمور التربية الدينية، لا لأننا جهلة متقاعسون، ولكن لأن الأسس الدينية التي تربينا عليها أسس صالحة مستقرة وصلت إلينا من أجيال مستنيرة بالروح، جلهم فلاسفة روح، ملهمون، كتبوا وعلّموا مُساقين بقوة الله، وضعوا أساساً لعلمهم منهج القديس بولس الرسول: «وأنا لما أتيت إليكم أيها الإخوة أتيت ليس بسمو الكلام أو الحكمة منادياً لكم بشهادة الله... لأني لم أعزم أن أعرف شيئاً بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوباً... وكلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسانية المقنع بل ببرهان الروح والقوة، لكي لا

يكون إيمانكم بحكمة الناس بل بقوة الله» (١كو ٢: ١-٥).

بهذا المنهج صنعت كنيستنا القديسين جيلاً بعد جيل وقدمت للسماء عدداً هائلاً من الشهداء وأبطال المسيحية الخالدين، وذلك لأن كنيستنا في حقيقتها مدرسة روحية مليئة بأساليب تربوية عملية ومبادئ روحية ثابتة موطدة، قادرة أن تشيع في قلوبنا راحة واطمئناناً، وكفيلة لكل من يحبها أن تملأ حياته سلاماً واستقراراً وفهماً لجميع مشاكل الحياة في كل ظرف وفي كل عصر. والذين ذاقوا حبها وعاشوا بروحها يعرفون صدق هذا الكلام.

لذلك فنحن نحتاج لا إلى استحداث شيء فيها أو تغيير أساليب تربيتها لنا، بل بالحري إلى تفهُّم ذلك المنهج الروحي المتقن، والترتيب العملي القوي الذي يصبُّ الدين في النفس ليَشيع في كل الحياة.

والواقع أن الطرق التربوية الجديدة لازالت لدى علماء التربية أنفسهم غير ثابتة ونتائجها أحياناً ما تكون وبيلة. ذلك لأن العلوم التي يرتشد بها المربون هناك مازالت هي نفسها غير مستقرة، خصوصاً علم النفس الذي يستهدف لتيارات عنيفة من التغيير، فما أشد الهدم فيه وما أسرع البناء، وكثيراً ما يلتقط التربويون نظرية غير ممحصة من أفواه علماء النفس ويضعون عليها برامج مستحدثة للتربية ثم يثبت بعد حين خطأ النظرية، فتكون الآثار السيئة والخسارة لا في أموال بل في نفوس وأجيال.

ثــقــة.

إن القبطي حين يذهب إلى تلك البلاد، وحين يقارن بين أسلوب كنيسته وطرقهم في التربية الدينية وبين روعة نظام كنيسته، يكتشف ويحس على الفور بأن روحه لا تنسجم مع تلك المناهج البراقة التي تستند إلى العقل والتحليل والعلم أكثر مما تخاطب القلب والروح.

إن غاية التربية الدينية هي صُنع القديسين، ومن الثمر تُعرف الشجرة؛ فأي نظام للتعليم والتربية أثمر رجالاً قديسين يشهدون بحياتهم لفاديهم أكثر مما صنع نظام كنيستنا؟

إذن، فلابد أن تتيقظ أرواحنا ومشاعرنا لندرك التعارض الذي تحمله وسائل التربية الدينية الغربية مع روحنا التصوفية الشرقية الهادئة المستقرة. وإن واجبنا الآن هو بعث الروح القبطية في التعليم والتربية المسيحية واكتشاف ما يحويه هذا النظام من إمكانيات ووسائل عملية كي نطبقه تطبيقاً واعياً لنصنع في جيلنا هذا ما حققته الكنيسة في كل تاريخها، حين جعلت أبناءها قديسين يحيون هنا على الأرض ناظرين إلى القدوس الذي دعاهم، ومنتظرين مجيئه في حب ورجاء وبثقة.

وكي يتحقق هذا الهدف، هناك واجب حتمي تلقيه الكنيسة في هذا الجيل على أولئك الذين وهبهم الله قوة الترجمة والإنشاء لكي يقوموا بترجمة تعاليم الآباء الأُول وهي ذخيرة تربوية دينية فلسفية هائلة توجد في مجموعات الكتب التي ظهرت حديثاً باسم "آباء ما قبل نيقية" و"آباء نيقية وبعد نيقية" — ومجموعة "الفيلوكاليا" الأصلية الكبيرة التي تحوي جميع أقوال الآباء الروحيين. بذلك يتيقظ الوعي عندنا، ونمهد السبيل الصحيح لتربية أرواح الأبناء من نبع تعليم آبائهم الأصيل النقي، فلا يعودون يتسوَّلون جرعة ماء من شعوب عطشى، بل يرتوون من نبعهم الخاص فتخرج من بطونهم أنهار ماء حي تسقي العطاش وتقودهم إلى الحق.

الفصل الثاني

الخدمة وروح المنهج الأرثوذكسي

كانت الكنيسة في الأجيال السابقة لا تقوم بعملية التربية الدينية كما تراها اليوم بصورها المتخصصة، لأن البيت القبطي كان هو مركز تسليم روح الدينية الأرثوذكسية. فالأب والأم وبقية أفراد الأسرة كانوا يشعرون بمسئوليتهم العظمى من جهة تسليم روح الكنيسة لأولادهم، فكان الولد يستقي منذ الطفولة روح الكنيسة والمعرفة الدينية بالتلقين اليومي، بالنموذج الحي، بالتوجيه العملي، بالقيادة، وبالقدوة.

ولكن الكنيسة منذ بداية القرن العشرين التزمت بالتربية المتخصصة بعيداً عن الأسرة بسبب طغيان المجتمع خارج البيت والكنيسة وانصباغه بروح عالمية مضادة تماماً للدين والأخلاق المسيحية. وفي نفس الوقت أصبح البيت المسيحي عاجزاً عن تسليم روح الكنيسة بسبب هبوط مفاجئ في المستوى الروحي مع فوارق الثقافة والتقدم العلمي بين جيل الآباء وجيل الأبناء.

هنا التزمت الكنيسة أن تستعير الأتقياء الناضجين من جيل المثقفين لتثقيف الأجيال الصغيرة الصاعدة لتعوض عن البيت النموذجي. الخادم هنا هو ممثل البيت المسيحي التقليدي، رسول الروح الأبوية التقليدية يحمل روح الآباء ويُسلِّمها للأولاد.

وبدخول التربية الدينية مجال التخصص الكامل خارج البيت وحملها مسئولية تربية الأجيال، أصبح من ألزم واجباتها استيعاب الروح الأرثوذكسية بأصولها وفروعها وتسليمها بكل أمانة ودقة حتى يُكتب

للأرثوذكسية الامتداد والانتشار.

ولكي ندرك أصالة التسليم والتلقين الأرثوذكسي في الأجيال الأولى، يكفي أن نتذكر كيف كان الشبان وحتى الأولاد يُقبلون على الاستشهاد واحتمال أبشع أنواع التعذيب في أزمنة الضيق والاضطهاد بحرارة وحماس يفوق قامة الكبار والشيوخ. وهذا يكشف عن مدى النجاح الهائل الذي بلغه البيت المسيحي أي الآباء والأمهات وأيضاً الكنيسة في تسليم روح الإيمان وحرارة العقيدة في ذلك الزمان.

وصورة أخرى تكشف لنا عن مدى أصالة التعليم الديني عند الشعب على اختلاف قاماته ومستوياته، هذه الصورة هي سلوك الشعب أثناء حروب العقيدة التي كان يخوضها الشعب بنفسه ضد البدع والهرطقات في أزمنة المجامع — الأجيال الثالث والرابع والخامس — فقد سجل لنا التاريخ الكنسي مناظر رائعة للشعب رجالاً ونساءً وهو يرتل التراتيل الخاصة بالعقيدة في البيوت والأسواق والحقول والمرافئ، وذلك تأكيداً لأصالة الإيمان الأرثوذكسي وتحدِّياً للخارجين عنه. وهذا يكشف أيضاً عن مدى ما بلغه كافة الشعب من وعي ديني بعقيدته وتقليده.

إذن، فكل ما نسعى إليه في الخدمة، عندما يوكل إلينا تربية الأولاد أو الشبان أو بقية الشعب، هو أن نبلغ بالإيمان المسيحي عندهم إلى مستوى الحياة، وبالتالي نصل بالعقيدة إلى مستوى الشهادة الواعية، أي أن يصل الإنسان في تديُّنه إلى أن يفضل الموت عن الحياة بدون المسيح: «لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح» (في ١: ٢١)، أي أن يعيش معه وفي حضرته ولا يطيق أن يعيش بعيداً عنه، وأن يجاهر بالأرثوذكسية كميراث

أوحد لكنيسة حملت صليب المسيح ألفي سنة! فإن بلغت الخدمة هاتين الغايتين تكون قد نجحت فعلاً في سعيها.

وقد يظن بعض المجددين في التربية الدينية أن متطلبات العصر تحتاج إلى تغيير أو تطوير في المناهج الفكرية الآبائية، هذا وهم خاطئ، فالأرثوذكسية بالذات أقوى ما فيها هو التقليد، بل إن التقليد هو قوتها وحياتها، والتقليد الأرثوذكسي حياة مسيحية موروثة وليس فكراً، والحياة في المسيح لا تشيخ ولا تتبدل، كالمسيح نفسه أمس واليوم وإلى الأبد هو هو. والحياة المسيحية الأرثوذكسية بلغت منتهى قوتها منذ البدء والعالم كله يشهد لها، فليس من بعد أثناسيوس وكيرلس وأنطونيوس ومقاريوس من تعديل أو تجديد، فقد بلغوا إلى ملء معرفة المسيح والحياة معه وسلَّمونا هذا الملء عينه وهذه الحياة، ولا زلنا منها نشرب ولن نأتي على نهايتها حتى يأتي المسيح!

صحيح أن هناك مشاكل ومسائل تُطرح علينا اليوم في الخدمة، ولم تكن تُطرح على آبائنا من قبل، كمشكلة تحديد النسل مثلاً أو الطلاق أو الهجرة أو المخدرات أو استخدام الراديو أو التليفزيون أو عمل برج يصل إلى القمر، أمور جديدة تماماً استحدثها مجتمع صاخب متضارب. ولكن لا ينبغي أن نتهرب من مواجهتها، كما لا ينبغي أن نجحدها كأنها لم تكن، وهي واقعة في بيوتنا تحت سمعنا وبصرنا. فمشاكل اليوم لا تُحل بنعم أو لا إنما يلزم أن نُخضعها لفكر المسيح لنخرج لها بحلول جذرية تتمشى مع روح العقيدة ومع كل فرد، دون أن نتجاهل الواقع أو ننطوي تحته، فالخادم الروحاني الذي انفتحت بصيرته بروح المسيح واستوعب الإنجيل وروح التقليد يستطيع أن ينــزل إلى كل مستوى

ليرتفع بكل مستوى.

حينما نبحث عن أصول الخدمة في الكنيسة على أسس أرثوذكسية ومناهج موضوعة خصوصاً في الستين سنة الماضية نواجه فضيحة لابد أن نعترف بها، فهذه البرامج لم تكن أرثوذكسية إلا اسماً، فكان الخدام المسئولون يستخدمون المناهج الغربية أي البروتستانتية يترجمونها كما هي مع إضافة بعض فصول عن الأسرار والطقوس والقديسين والشفاعة، متوهمين أن مثل هذه اللصقات كفيلة أن تجعل المنهج أرثوذكسياً.

ولكن ما يلزم أن نعرفه الآن أن المنهج الديني لا يعني أبداً تبويب بعض مواضيع وتقسيمها على فصول السنة، فهذا يسمى **برنامجاً** وليس **منهجاً**.

معنى المنهج:

المنهج الديني يختص بالأساس الروحي الثابت الذي يطابق روح التقليد والذي نفهم به المواضيع ونشرحها، وليس هو الموضوع في حد ذاته، المنهج هو طريقة الفهم والشرح والاستيعاب. فهل نفهم الإنجيل والآيات بمنهج أرثوذكسي أو بمنهج غربي (بروتستانتي أو كاثوليكي)؟ هل نفهم الكنيسة والطقوس والأسرار بمنهج أرثوذكسي قبطي أو منهج غربي (بروتستانتي أو كاثوليكي)؟ فالرجل الغربي (البروتستانتي أو الكاثوليكي) عنده طقوس وعنده أسرار، ولكن طريقة فهمه وشرحه واستيعابه لها تختلف جذرياً عن الطريقة الأرثوذكسية.

كذلك فالمنهج يتعلق بطريقة التعليم والتربية والأسلوب الذي نستخدمه لنمو مدارك الأولاد والشباب، فهل الطريقة التي نستخدمها في التربية الدينية -أي الخدمة بمعنى أصح- تتبع طريقة تعليم غربية

بروتستانتية عقلية، أم طريقة تعليم شرقية أرثوذكسية روحية؟

كذلك المنهج يرتبط ارتباطاً جذرياً بالمُثُل العليا التي نوجه إليها التربية، أو بمعنى آخر أن المنهج مسئول عن الصورة النهائية التي ينتهي إليها نضج الشاب ويتبلور عليها فكره وروحه. فهل المثل النهائي أو الصورة المثالية التي نضعها نصب أعيننا في الخدمة تهدف نحو مثل غربي بروتستانتي فردي متحرر، أو مثل أرثوذكسي كنسي جماعي؟

الفرق بين المنهج الغربي والمنهج الأرثوذكسي:

ونحن حينما نفرق بين منهج غربي ومنهج أرثوذكسي، فنحن في الحقيقة لا نتعرض لعقائد وإنما نفرق أساساً بين منهج غربي ومنهج شرقي، فالبروتستانتية وليدة عقل ألماني، قامت مناهجها على أساس المنطق العقلي والمحاجاة الفكرية والحرية الفردية لإنسان أو لبعض الناس الغربيين الذين لم يستسيغوا ولن يستسيغوا أن يخضعوا للروح إلا بما يقبله العقل.

فالمنهج البروتستانتي منهج عقلي فردي. ولأن لكل إنسان عقله، لذلك صار لكل إنسان غربي منهجه ودينه.

المنهج الأرثوذكسي منهجٌ روحيٌ وليس بعقلي، فهو يُخضع العقل لفعل الروح، وليس العكس. ومعروف أن الروح لا يعمل أبداً على مستوى فردي فهو يجمع ولا يفرق، يوحد كل اثنين فيجعلهما واحداً، وبهذا لا يبقى خلاص أو دين لفرد، فلا خلاص في المنهج الأرثوذكسي خارج الكنيسة أي خارج الجماعة المتحدة بجسد المسيح وروحه. الأسرار المرفوضة في المنهج البروتستانتي هي في المنهج الأرثوذكسي أساس

التجميع والوحدة: فسر المعمودية يلد الفرد، وفي الحال يضمه إلى جسم الكنيسة بالإفخارستيا، وسر الزيجة يُنهي على الروح الفردية ويجعل الاثنين جسداً واحداً، وسر الكهنوت يحقق سر المصالحة في الكنيسة لجمع المتفرقين إلى واحد، وسر الاعتراف عودة بالضال المنفرد إلى الكنيسة جسد المسيح السري، وسر مسحة المرضى هو سر انسكاب الشفاء الروحي للتأمين ضد الانفصال. الأسرار كلها إذن تجمع وتوحِّد وتؤمِّن نمو الجماعة، المنهج البروتستانتي يرفضها إن لم يكن شكلاً فموضوعاً، لأن البروتستانتية ديانة فردية تقدس الحرية الفردية والحرية العقلية.

ومن هنا أظن أنه يتضح خطورة ترجمة المناهج البروتستانتية وإعطائها عناوين أرثوذكسية، لأن الخط الفكري الغربي يتغلغل في كل كلمة وكل فكرة وكل موضوع وكل طريقة، وسبق أن قلنا إن المنهج له تأثير حتمي على فكر الخادم والمخدوم. فالمنهج الغربي يوجه توجيهاً لاشعورياً لتكوين جيل عقلي فردي متحرر.

الكنيسة الأرثوذكسية تعاني الآن معاناة مؤلمة من جراء الجرعات التربوية الغربية التي سقاها لها المجددون في التربية الكنسية.

الشباب اليوم ازدحم عقله بالثقافة والمعرفة الدينية دون أن يكون لها واقع حي في حياته وسلوكه، إلا بالقدر الذي استقاه هو نفسه من الأمثلة الحية التي رآها. هذه هي النتيجة الحتمية لمنهج مدارس الأحد الذي اضطلع به الخدام والأمناء منذ الثلاثينات من هذا القرن.

الشباب اليوم ينتقد بمرارة الأوضاع الكنسية والصلوات الطويلة

والأصوام الكثيرة والألحان واللغة القبطية، لأنه لم يتذوقها بالقدر الكافي، ولم تكن جزءاً من **منهج تربيته** وحتى ولو كانت جزءاً من **برامج دروسه** التي تعلمها وحفظها وبرع فيها، فهي لم تكن على مستوى الممارسة الحية والخضوع الروحي والتذوق الكنسي. لقد كان البرنامج أرثوذكسياً شكلاً، فالمواضيع أرثوذكسية بلا شك، فقد درس الشاب عن القديسين والشفاعة والأعياد والأصوام كما يدرس الطالب المسيحي في كلية الآداب التصوف الإسلامي والهندي دون أن يمارسه ويعيشه حقاً. لقد درس القداس الإلهي على مستوى بروتستانتي، أي عقلي، فقد عرف كل شيء فيه، ولكنه لم يتذوقه ويخضع له بروحه فبقي حضور القداس عنده مجرد طاعة، أو التزام معرفة وتطبيق معلومات، وليس حياة يحياها ويستمتع بها كمصدر سرور وعزاء لا غنى عنه.

الشباب اليوم يسأل كثيراً ويناقش ويحاجج في الروحيات كأنها علوم، فبعد كل سؤال، سؤال آخر، ووراء كل نقاش استعداد لنقاش آخر، والمحاجاة محاجاة من أجل المحاجاة، لأن المنهج الذي عاش عليه منهج عقلي بروتستانتي، أي غربي، ينمي المدارك العقلية بالشرح والتوضيح الذهني. فالعقل كبر ونضج وتفتّح لمعرفة الروحيات على أساس منطقي علمي، لذلك فلن يكف عن السؤال ولن يقف عند نقاش معين أو ينتهي عند محاجاة، بل المزيد ثم المزيد إلى مالانهاية حتى تصطدم المعرفة باللامعقول، والمعرفة حتماً تصطدم باللامعقول في المجال الديني، لأن الروحيات ليست قابلة للسؤال إلى مالانهاية ولا تخضع للنقاش إلا على أساس التسليم بما يفوق العقل والمنطق.

والمنهج الأرثوذكسي يختلف عن المنهج البروتستانتي اختلافاً جوهرياً.

فالمنهج البروتستانتي يعطي المعرفة المجردة أولاً لتكون هي الطريق والباب إلى الممارسة بعد ذلك.

المنهج الأرثوذكسي يجعل الممارسة أساساً "**تعال وانظر**"، أي "**تعال وانظر لكي تعرف**". فالحضور إلى الكنيسة والمشاركة في القداس وممارسة الأسرار وحياة التوبة ومعاشرة الأتقياء والأمثلة الحية هي الأساس الذي تنطلق منه المعرفة، فالخبرة في المنهج الأرثوذكسي يتحتم أن تسبق المعرفة. ومن الواقع الروحي والقدوة والسلوك والنموذج الحي الذي يقدمه المنهج الأرثوذكسي تنبع المعرفة الروحية حيث تكون المعرفة هنا معرفة ملهمة. والخادم الأرثوذكسي يستخلص من الواقع الروحي الحي الذي عاشه هو والذي تعيشه الكنيسة دروساً للحياة، وهنا يتضح أن المنهج الأرثوذكسي ليس منهجاً فكرياً يقوم على المعرفة المستقاة من الكتب.

لذلك **فالمعيار الأساسي للمنهج الأرثوذكسي** هو: **لا معرفة بدون ممارسة، ولا تعليم بدون عمل مسبق، ولا سؤال قبل المحاولة والتطبيق، ولا مناقشة إلا بعد تذوق؛** حيث تكون المعرفة دائماً أبداً منبثقة من الخبرة ومطابقة لها؛ وهنا يكون السؤال والجواب فرصة لعرض **خبرات حية** أي **لتسليم حياة** وبالتالي واسطة للامتداد في خبرات أكبر.

الشباب في الكنيسة الأرثوذكسية اليوم يحس أنه يذهب ليستقي المعرفة الروحية من أية جمعية أو أية كنيسة خارج كنيسته، هذا في الواقع نتيجة حتمية لتطبيق المناهج البروتستانتية الغربية التي أنشأت عقل الشاب على لذة المعرفة العقلية أكثر من الممارسة، فأصبح المهم عندهم أن يعرفوا

أفضل، وبالتالي فهم أحرار يذهبون وراء المعرفة الروحية الأفضل أينما وجدوها لعلها توصلهم إلى حياة أفضل. وهيهات، لأن وظيفة العقل في الروحيات أن يستوعب فقط لا أن يقود.

المنهج الأرثوذكسي لا يجري وراء لذة المعرفة بل يسعى جاهداً ليوحد الشاب في جسم الكنيسة أولاً، أي يربطه بالمسيح ومع الجماعة: جماعة الأتقياء المفديين، حتى يأخذ منهم صورة لعشرة المسيح ثم يستقيها منهم بواسطة توجيههم وإرشادهم أولاً بأول. لذة الأرثوذكسي أن يعيش مع المسيح داخل الكنيسة في ظل مثل صالح تحت رعاية أب تقي يخاف الله ليصل بواسطته في النهاية إلى قصده السعيد.

المنهج الأرثوذكسي يرفض أية معرفة روحية خارج الواقع الحي الذي عاشته وتعيشه الكنيسة، مهما كانت هذه المعرفة براقة ومشوقة، لأنها بالنهاية ستفصله عن جسم الكنيسة، عن أمه التي ولدته من سر معموديتها. القديس أغسطينوس يرفض حتى الكتاب المقدس نفسه إذا قُدِّم له أو فُسِّر له من غير الكنيسة: "أما من جهتي فأنا لا أومن بالإنجيل إلا كما يوجهه سلطان الكنيسة".

المنهج البروتستانتي غربي بطبيعته، كما قلنا، وهو يميل إلى فصل الحياة داخل الكنيسة عن الحياة خارجها، وقد سمى الحياة خارج الكنيسة بالحياة الاجتماعية. فالمسيحي البروتستانتي كما نراه في الغرب يستطيع أن يعيش حياتين، كلاً منهما لها تقليدها الخاص؛ حياة دينية للعبادة، وحياة اجتماعية ملؤها الحرية الجسدية والملذات والملاهي والانحلال.

المنهج الأرثوذكسي لا يفصل الحياة داخل الكنيسة عن الحياة خارجها. الكنيسة تؤهلني، ضمن ما تؤهلني، لكي أحيا خارج الكنيسة

كما أحيا داخلها تماماً. المسيحي الأرثوذكسي الحياة الاجتماعية عنده ليست حياة اجتماعية ذات تقليد خاص، فحياته الاجتماعية هي حياته المسيحية نفسها بكل واجباها وتقاليدها.

البيت الأرثوذكسي كنيسة، والكنيسة بيت أرثوذكسي، وإذا اجتمعت أي جماعة أرثوذكسية في أي مكان فأول ما يعملونه يصلون ويُسبِّحون، فيجعلون المكان كنيسة.

الشباب الأرثوذكسي يحاول الآن أن ينشئ له تقليداً اجتماعياً جديداً لامسيحياً خارج الكنيسة، متشبهاً بالغرب، مخالفاً بذلك ميراثه الأرثوذكسي وتقليده الأصيل. العيب هنا يقع على المنهج الديني حيث يكون الأساس الذي بُني عليه وجدان الشاب ومزاجه الديني أساساً عقلياً. والأساس العقلي غير ثابت وبالتالي غير مُلزِم. لذلك فهو يعطي فرصة للشاب أن يتحرر وأن يعيش كما يشاء؛ في حين أن المنهج الأرثوذكسي السليم يربط الشاب بالكنيسة، وبالتالي يُخضع حريته للحق الواحد والروح الواحد الذي تستقي منه الجماعة، فيصبح الشاب له نفس تفكير الجماعة وسلوكها. فرق كبير بين أن أُلقِّن الصبي درساً عن القداس الإلهي مشروحاً ومنمقاً بنماذج ووسائل إيضاح، وبين أن أقوده داخل القداس بقدوتي وبخشوعي، ثم بعد ذلك بحياتي، التي يكون قد انطبع عليها القداس فأعطاها صورها التقوية وسلوكها الخشوعي خارج الكنيسة.

الطريقة الأولى عقلية غربية سهلة، لا تكلف المدرس أكثر من ساعة يحصر فيها عقله لتحضير الدرس وشراء قربانة وشمعتين كوسيلة إيضاح،

هذا منهج غربي.

أما **الطريقة الثانية** فهي عملية روحية خالصة تستلزم أن يكون المدرس كنسياً بالمعنى الكامل، روحياً مخلصاً في روحياته، محباً لكنيسته مواظباً عليها بتقوى كاملة وخشوع، عاش طبقاً لنموذج حي، أي أب أو مرشد تقي، وبذلك يكون قد استلم السلوك الروحي داخل الكنيسة وخارجها ونجح في إخضاع فكره وقلبه ولسانه لروح القداس والكنيسة.

الطريقة الأولى تعطينا شاباً عارفاً بالكنيسة ولكن غير متأثر بها، مُتقناً لكل طقوسها وأسرارها ولكن غير عائش فيها، وهذا بالتالي يؤهله أن يعيش حياتين: حياة داخل الكنيسة لها صورة التقوى وحياة خارج الكنيسة اجتماعية حرة من الكنيسة، غير منطبعة بها ولا متأثرة بروحها.

الطريقة الثانية تعطينا شاباً حياً في الكنيسة ومتحداً بها، ومن حياته الكنسية واتحاده بروحها وأسرارها يستمد كل سلوكه وتصرفاته خارجها. وبذلك تصبح حياته خارج الكنيسة طاعة وتطبيقاً عملياً مباشراً لما اكتسبه بالروح من إلهامات وتوجيهات خفية داخل الكنيسة والأسرار.

وهكذا فإن برهان المنهج الأرثوذكسي الصحيح في التربية يظهر بكل وضوح في سلوك الشباب خارج الكنيسة، حيث يكون السلوك منطبعاً بالإلهام الروحي ورزانة القداسة أو بمعنى آخر أن لا يكون هناك أي أثر للثنائية أو الانحلال الاجتماعي في حياة الشباب.

البَابُ الثَّانِي

في بناء الخادم

الفصل الأول

إعداد الخادم كنسياً

الخدمة بوضعها الحالي لا يمكن احتسابها خدمة من داخل الكنيسة بأي حال من الأحوال، الخدام ليسوا كنسيين، والاستثناء من ذلك قليل جداً لا يكاد يُذكر، حتى أننا نستطيع أن نقول إن الخدام كلهم ليسوا كنسيين.

وما معنى "خادم كنسي"؟

الخادم الكنسي ليس مجرد خادم درس العلوم الكنسية ونجح فيها بامتياز حسب الدرجات المرصودة، أو من الدور الثاني، أو بعد تعثرات كثيرة وملاحق، لأن روح الكنيسة لا يُدرَّس بل يُسقَى «كلكم سُقيتُم روحاً واحداً» (١كو ١٢: ١٣)، و«فكر المسيح» (١كو ٢: ١٦) لا يُستمد من الكتب، وبالتالي لا يمكن طرحه حياً في مناهج وتجزئته على علوم، بل هو مستمد من المسيح أولاً ومن المسيح أخيراً ودائماً. وفكر المسيح هو روحه «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو ٦: ٦٣). صحيح أنه ينبغي أن يكون من خلال معلم وكتاب وينبغي أن يكون له شهادة، ولكن لن يكون ذلك بدون شخص المسيح الحي.

الخادم الكنسي إذن لا يمكن أن تزكيه مجرد شهادة مكتوبة، بل تُزكِّيه شهادة حية من داخل الكنيسة. المذبح نفسه يشهد له لأنه يعرفه تماماً كإنسان يطوف حوله دائماً غاسلاً قلبه وفكره وجسده بدموعه وبدم المسيح. الأواني المقدسة تشهد له وليديه الطاهرتين التي تلفها وترتبها

بوقار كثير. خورس الكنيسة يشهد له لأنه جزء حي في هارموني التسبيح، مكانه معروف في الصف، وجهه يشيع الثقة في المسيحيين، الكاهن يعتمد على وقفاته الصحيحة وصيحاته المتقنة، الشعب كله يعرف دخوله وخروجه كعمود مضيء متحرك يشيع الفرح والرضى في قلوب المصلين، ليالي الأعياد تزدهر بتسبيحه وبمعرفته لكل مناسباتها بإتقان وفهم من مردات مناسبة، وقراءات محفوظة، وألحان مخصوصة، وطقوس ذات معاني وبهاء ومجد.

الخادم الكنسي إذن لا تُزكِّيه معرفة الكتب الكثيرة أو التعليم الكثير، ولكن يُزكيه روح المسيح الذي يستقيه كل يوم من الكنيسة في الصلاة وفي الأسرار وفي التسابيح ومن صوت المسيح المقروء في الإنجيل بخوف ورعدة ووقار الحضرة الإلهية.

الخادم الكنسي، إذن، لا يُزكيه الوقوف على المنابر دون أن يزكيه أولاً مكانه في خورس المرتلين وإتقانه التسبيح والخدمة بفهمٍ وحكمة الروح، تُزكيه وقفاته الخاشعة أمام المذبح رافعاً الصليب، خادماً الأقداس ومُتناولاً من القُدْسات. أو كيف يمكن للخادم أن يعرِّف الناس بالمسيح وهو لم يستقِ من روحه؟ وهل يمكن للخادم أن يدَّعي لنفسه خدمة المسيح وهو لم يخدم بيته ولا عرف كيف يخرج ويدخل أمامه؟

الخادم الكنسي لا تُزكيه قراءاته في كتب الشرق أو الغرب واقتباساته من كل من هبَّ ودبَّ وبكل اللغات، وهو لا يعرف أن يقرأ كتب الكنيسة ويجهل لغتها ويتهيب مواقفها ويتهرب من صلواتها، وكأنما ليس له في الكنيسة مكان إلا المنبر الذي يتدرب عليه خارج الكنيسة ويختلس

الطريق إليه، لا من بابه الرسمي بل كمن يتسلّق الأسوار ويدخله من الشباك.

الخادم الكنسي لا يُزكيه صوته الحسن ومعرفته الفذة بتراتيل هذا عددها وأوزان كثيرة غربية بروتستانتية غريبة عن أذن الكنيسة لم تعرفها ولم تتعود عليها ولا تستسيغها، لها معاني جيدة ولكن روحها مستوردة لا تربط السامع بكنيسته ولا تبني النفس على التأصل في تراثها، بل تسرق الروح لتطرحها على أعتاب كنائس الغرب تلتقط الفتات من موائد أوزانها وطرائقها أولاً بأول، مع أن خزائن الكنيسة تحوي المئات من الألحان المبدعة التي باتت حزينة مهملة كعُملة ذهبية قديمة تنتقل من خزانة إلى خزانة.

الخادم الكنسي لا يُزكيه تحضير الدروس والإتقان في اختيار الآيات وطرائق الإيضاح وتسديد خانات الحضور والتناول، ولكن تُزكيه حياته داخل الكنيسة ومحبته لها وغيرته عليها وإيمانه بها وممارسته لكل طقوسها وتشبُّعه بتاريخها وقديسيها وإحساسه أنه جزء حي فيها.

ولكن ما هو الطريق إلى ذلك وما هي الضمانات؟

أولاً: الطريق العملي لإعداد الخادم كنسياً

حينما نسأل أو نبحث عن ما هو الطريق العملي للامتلاء من الحياة الكنسية، يلزمنا في الحال أن ندرك أننا نسأل ونطلب ما يفوق كل طرق المعرفة العقلية والعملية التي يسير عليها العالم، وهذا يعني ببساطة وصدق أننا داخلون في سر، سر المسيح أو سر الكنيسة.

وقبل أن ندخل في هذا السر، سر الخدمة، يلزمنا أن نفهم ونتيقن أن المسيحية ليست نظريات فلسفية، ولا هي مبادئ أخلاقية سلوكية، ولا هي مجرد طقوس وترتيبات وأنظمة، بل هي قبل كل شيء حياة، حياة جديدة، حياة طاهرة، حياة بسيطة، حياة محبة وتواضع، هدفها واحد وحيد هو **اتحاد بالمسيح وبالناس**، هذا الاتحاد أو الوحدة التي تجمعنا بالمسيح وبالناس هي هي «**الكنيسة**». لذلك فالخدمة الصحيحة تبتدئ من الكنيسة وتنتهي إلى الكنيسة، أي أن غاية الخدمة ومطلب الخدمة وسعي الخدمة من الأول إلى الآخر، هي أن يصير الخدام والمخدومون وحدة واحدة في المسيح، بالحب المتبادل، والثقة المتبادلة، والتواضع الصادق، الصغير للكبير، والكبير للصغير، حتى نرفع جميع الفوارق والحواجز التي تعطل هذه الغاية السعيدة. لأن في هذه الوحدة فقط تزدهر المعرفة وتزدهر الفضيلة وتنسكب المواهب ويرتاح الروح ويفرح المسيح ويعيش في الجميع، فتنمو الخدمة وتنمو الكنيسة.

سر الخدمة

سر الخدمة مختفي ومتوزع داخل كافة الصلوات الليتورجية داخل الكنيسة، لأن صلوات الليتورجية التي للإفخارستيا والتسابيح هي روح

الكنيسة، أو هي رئة الكنيسة التي تتنفس منها الروح القدس فيسري فيها دم المسيح لقبول فعل الحياة الأبدية، وكل من يشترك فيها يحيا ويتجدد يوماً بعد يوم.

الخادم أو المعلم في الكنيسة عليه أن يدخل أولاً إلى عمق هذه الشركة الحية، حتى يستطيع أن يكتشفها أولاً لنفسه، حتى يقدر أن يوضح أعماقها وغناها وغايتها للآخرين.

مَنْ ذا يستطيع أن يقول للآخرين «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» إن لم يكن هو قد أكل وشرب من هذا الطيب واستعلن ونظر وعاين صلاح الرب؟ التعليم أو التربية الكنسية في عرف الأرثوذكسية ينبغي أن تكون أولاً وقبل كل شيء تعليم الصلوات وتربية الروح بالليتورجية في كل نفس.

وإن أعظم ضمان لنجاح التعليم ونجاح التربية الكنسية هو في التشبُّع بالصلوات والتشبع بالقداسات قبل البدء في شرحها وتحليلها حتى يسبق التذوقُ المعرفة وتسبق الخبرةُ الفهم، أي تصير التجربة الروحية هي المنطلق الوحيد للنمو وليست المعرفة العقلية أو الفهم والمحاجاة!

وليكن معلوماً لدى كل مربي وكل معلم وكل خادم في الكنيسة، أن الحصيلة الوحيدة التي تبقى مختزنة في أعماق الطفل وتظل توجه تفكيره وسلوكه وإيمانه حتى الكبر، هي التي يتحصل عليها في اللاشعور، أي التي يستقبلها بوجدانه وليس بعقله!

وهنا تبدو الليتورجية والتسابيح والخدمات الطقسية أستاذاً كبيراً بارعاً لا يُجارَى في تغذية اللاشعور وإشباع الوجدان بكل ما هو روحي وكل ما هو جليل.

أما بالنسبة للخادم حتى وإن كان قد تجاوز مراحل الطفولة دون التشبع بالروح الكنسية، فلا يزال أمامه المجال رحباً والباب مفتوحاً على مصراعيه، لأن التعمق في الروح لا يتناسب مع الزمن بل يتناسب مع الغيرة والحرارة والحب. فمجرد اشتراك الخادم في الخدمات الكنسية بروحه وتفتُّحه للصلوات وتقبُّله لحركات الروح في القلب كفيل بانفتاح بصيرته لمعرفة الإلهيات وتعمُّقه في فهم كل علوم الكنيسة دون جهد من العقل كثير، لأن الاتضاع والوقار الذي تتسربل به النفس ويتسربل به العقل أثناء العبادة والصلوات كفيل بأن يرفع العقل فوق مستواه، حتى ليكاد الإنسان أن ينبهر من فرط التغيُّر وعمق الامتداد.

أرأيت، إذن، كيف ينفتح سر الاتضاع والوقار على الإنسان وقت الليتورجية فينفتح عليه سر المعرفة وسر البصيرة الذي يمتد بالإنسان إلى كل علم وفهم فيما يختص بالإلهيات؟

إذن، فلا تتعجب أيها الخادم حينما نقول لك إنَّ سر الخدمة يكمن في سر الليتورجيا!

ولكن ليست المعرفة والبصيرة والتعمق في الإلهيات وحدها هي الهدف النهائي للخادم كما سبق وقلنا، بل الوحدة مع الآخرين ومع المسيح بالحب. وهنا نقول إن شركة الخادم في الليتورجيا هي الفرصة الإلهامية العظمى التي يبلغ فيها الإنسان إلى عمق نفسه حيث يواجه حالة من الاتضاع الصادق الشديد الذي يهزُّ كل كيانه ويُسقط كبرياءه إلى الحضيض، وهنا ينفتح على الإنسان مجال الندامة واستعداد الصفح والحب لكل إنسان. إذن، فمن خلال الليتورجيا تسقط معطلات المحبة وبالتالي

يدخل الإنسان يوماً فيوماً في سر الوحدة العظمى مع كافة الناس ومع المسيح. وهنا تكون الخدمة قد بلغت الذروة في نجاحها، ويكون الخادم قد بلغ الغاية من رسالته.

ولكن حذار! فإن الليتورجيا في الكنيسة قد تكون ميتة وقد تكون حية، والذي يميتها ويحييها هو قلبك وصِدْقك، هو إخلاصك في دخولك إلى الله وفي ندمك واتضاعك وحبك، واستعدادك للانفتاح على الآخرين.

ثانياً: وما هي الضمانات؟

لقد أوضحنا الطريق إلى إعداد الخادم كنسياً، ولكن لكي نضمن أن يبقى الخادم كنسياً يلزم أن يدخل تحت درجة كنسية حتى يلازم الخدمة الكنسية دائماً وليقوم بواجباتها، بمعنى أنه ينبغي أن يكون الخادم صاحب درجة تتناسب مع قامته الروحية ومع تدرُّجه في الخدمة. والدرجات للخدمة في الكنيسة تبتدئ من قارئ (أناغنوستيس)، ثم إيبيذياكون أي مساعد شماس (أي مساعد خادم)، ثم ذياكون أي شماس (أي خادم)، ثم أرشيذياكون أي رئيس شمامسة (أي مقدَّم خُدام).

والحقيقة التي ينبغي أن نعلمها جيداً ونحرص عليها كل الحرص، هي أن الكنيسة لا تعرف معنى للخدمة خارج درجاتها الرسمية. فالتربية الكنسية بوضعها الحالي غريبة عن الكنيسة وخارجة على نظامها وتدبيرها التقليدي، وستبقى كذلك إلى أن يستقر داخل الكنيسة كل واحد في درجته المطابقة لخدمته والمناسبة لمؤهلاته.

ولكن من الخطر كل الخطر أن نُقْدِمَ على الرسامات قبل إعداد الخدام

وتأهيلهم للدرجات تأهيلاً كاملاً راسخاً.

وهنا تصير فصول إعداد الخدام عبارة عن خوارس ودروس تعدُّ خداماً للكنيسة بمعنى الكلمة، يشرف عليها آباء إكليريكيون وإخوة متخصصون في علوم البيعة ولغتها، ومرتلون مخلصون لرسالتهم، وآباء روحيون.

ويقسَّم المنهج بالنسبة للخدام إلى أربعة مستويات واضحة تتناسب مع الأربع الدرجات الرسمية للخدمة داخل الكنيسة من قارئ إلى رئيس شمامسة.

ولا ينتقل خادم من رتبة إلى رتبة أعلى إلا بامتحان رسمي وتزكية مكتوبة وتحت ضمانات وتعهدات من المتقدِّم للرتبة، ومن الذي يقدِّمه حيث يكتب اسمه في سجلات الكنيسة التابعة لها، ويسلم له شهادة في يده تخوِّله تأدية كل فروض وظيفته التي تحدد له.

وبذلك يكون رئيس الشمامسة (أمين مدارس الأحد) مسئولاً مسئولية كنسية أمام الله والأسقف عن كل الشمامسة (الخدام)، عن كل الإيبوذياكونيين (المقيَّدين في فصل إعداد الخدام)، أما القراء (الأناغنوستيسيون) فهم الشبان المقيدون بالفصول الكبيرة وذلك بعد تأديتهم للامتحان والتزكية المطلوبة لهذه الرتبة.

والمعروف أن كل طغمة الشمامسة تتبع في تدبيرها رئيس الشمامسة، ورئيس الشمامسة يتبع في تدبيره الأسقف مباشرة.

والواقع أن الكنيسة لم تترك شاردة ولا واردة بالنسبة لنظام وتدبير طغمة الشمامسة إلا أوضحته وقطعت به، فالأمر لا يحتاج إلى استنباط قوانين أو تغيير أو تعديل بأي وجه من الوجوه، ولكن لا يعوزنا إلا

التطبيق واحترام قوانين البيعة.

ولكن نعود فنكرر أن قيمة هذا النظام الكنسي متوقفة على جدية الآخذين به وعلى الإخلاص في تأدية واجباته لأنه باب حقيقي مؤدي إلى الحياة الأبدية.

الفصل الثاني

بناء الخادم نفسياً

(١)

إن أكبر عقبة تقف الآن في طريق الخدمة لتمنعها من النمو نمواً روحياً أصيلاً حسب الإنجيل وروح الآباء، هي ضعف المستوى الروحي عند الخدام عامة.

أما السبب الرئيسي لضعف المستوى الروحي العام عند الخدام فهو **ضعف البناء النفسي**، لذلك تحتم علينا أن نخوض في البناء النفسي لشخصية الخادم قبل أن ندخل في البناء الروحي.

فمن الأمور المعروفة جداً والمسلَّمة إلينا من الآباء، أن النفس السوية هي وحدها التي تؤهَّل أن تكون روحانية، وهي التي يتكشف الحق الإلهي أمامها. أما النفس المحمَّلة بالعيوب والضعفات والأخطاء، فمن المستحيل أن يرتاح فيها الروح القدس أو تبصر النور بوضوح. ونحن حينما نقول العيوب والضعفات والأخطاء النفسية، لا نريد أن نخوض الآن في الخطايا الفردية المعروفة، القادرة أيضاً على إفساد النفس البشرية وحجز النور الإلهي عنها مثل: الكذب، والرياء، والبخل، والطمع، والوشاية، والنجاسة، والكبرياء، والعظمة المفتخرة في قالب تواضع، والاعتداد بالذات، ومحبة الذات، والجري وراء مديح الناس، وبقية الخطايا التي تلاحق الخدام وغير الخدام على السواء، فهذه نتركها الآن لأنها معتبرة خطايا فردية أو ربما نحيل علاجها إلى أبواب أخرى غير باب الخدمة.

لكن نود أن نفرِّق هنا بين الخطايا الفردية والعيوب النفسية بالنسبة للخادم، فالفرق بينهما كبير مثل الفرق بين مرض يصيب العين كالرمد وبين قصر النظر، فالرمد مرض فردي أما قصر النظر فهو عيب عام وظيفي، وإذ نحن هنا بصدد الخدمة عامة، فلا ينبغي أن يسترعي اهتمامنا إلا العيوب العامة أولاً.

والآن ما هي العيوب أو الضعفات أو الأخطاء النفسية العامة المشتركة بين الخدام التي تفسد حال الخدام والخدمة وتوقف نموها الروحي وتحجز النور عنها؟

سنكتفي هنا بعرض ثلاثة عيوب نفسانية بالنسبة لجيل الخدام:

١- روح التبعية.

٢- روح التحزب الفكري والعاطفي.

٣- روح الأخلاق الأسرية.

أولاً: روح التبعية:

الخدام في هذه الأيام – لا نقول الشباب بوجه عام بل الخدام – ميَّالون بصورة جارفة أن يتبعوا: أي تعليم، أي شخص، أي فكرة، يتبعوا وحسب.

هذه الظاهرة واضحة في جيل الخدام المعاصر الصاعد، ولم تكن موجودة في الجيل السالف المخضرم. الجيل السالف كان يتميز بالشخصيات، وبكل إعزاز واحترام نقول إنها كانت ولا تزال شخصيات ناضجة مستقلة مكافحة متزعِّمة في الخدمة، أغلبهم تكرَّس، ومنهم الآن الأساقفة الأجلاء والكهنة المؤتمنون، والرهبان، والأراخنة العلماء الذين

أدوا للكنيسة خدمات جليلة. أما جيل الخدام المعاصر فهو مفتقر أشد الافتقار إلى المقوِّمات أو المميزات الخاصة بالشخصية، فهو عوض الاستقلال الذاتي يسوده الآن روح الاندماج والانتماء، فما هي علة هذا القصور؟ هناك عدة عوامل أدت إلى هذه "الطَبْخة" غير الناضجة من الخدام:

العامل الأول: قلة القادة بالنسبة للأعداد الضخمة من الشباب. والمعروف أن إعداد الخدام ليس مجرد إلقاء عظات وحضور قداسات أو تدريس برامج في سنة أو سنتين، ولكن إعداد الخدام يحتاج إلى حياة مشتركة يأتلف فيها الخدام المبتدئون مع قائدهم أو معلمهم الروحي، يختبر قدراتهم، ويصحح عيوبهم، ويعدِّل أفكارهم، ويبني مداركهم، ويضع لكل واحد أسس شخصيته، ويباشر نموهم، حتى تكمل ملامح شخصية كل واحد منهم بحسب مواهبه؛ وبتكامل الشخصية يتأهل الواحد منهم للخدمة.

العامل الثاني: جنوح بعض القادة والمعلمين إلى فرض شخصياتهم لتكون واجهة حتمية أو باباً أوحد للمعرفة، فانطبعت نفوس الخدام بالشخصيات المعلمة أكثر من انطباعهم بالتعليم، فصار الانتماء لشخصية المعلم أو الأب التزاماً أساسياً لقبول تعليمه، وهذا تسبب في مسخ تدريجي للمميزات أو المقومات الأساسية اللازمة لبروز شخصية الخادم، فعوَض الشخصية المستقلة سرت روح التبعية أو الانتماء لشخصية المعلم أوَ الأب.

العامل الثالث: نوع التربية المنـــزلية منذ ستين عاماً تقريباً ساعدت

بدورها على مسخ الشخصية، إذ كانت تتميز بالدكتاتورية التربوية، فالآباء منذ ستين سنة كانوا معتزين بمعرفتهم التقدمية، وقد أخذوا في تطبيق أساليب التربية لطبع شخصيات أولادهم بالصورة الدينية والأخلاقية التي تروق لتخيلاتهم دون اعتبار لاستعدادات الطفل ومواهبه، وبذلك اشترك الآباء في عملية مسخ شخصية الجيل منذ الطفولة.

العامل الرابع: هبوط مستوى ممارسة الاعتراف والإرشاد الروحي من الجهتين أي من جهة المعرِّف ومن جهة المعترف.

فمن جهة المعرِّف (**أب الإعتراف**) **أو المرشد** فمعظم المُعرِّفين والآباء المرشدين يتبوأون مراكز المعرفين قبل بلوغهم الدرجة الروحانية المناسبة التي تؤهلهم لحمل هذه المسئولية الخطيرة، مع أن الثابت في طقس الكنيسة أن لا يرقى الكاهن إلى درجة مُعرِّف إلا بعد بلوغه الخمسين، على أن تكون بوادر الحكمة الروحية والإلهام والمعرفة وانفتاح البصيرة لكشف النفس وتطبيبها قد وضحت في تصرفاته وحياته، على أن يُعطَى حلاً بهذا من الأسقف بعد صلاة خاصة تُقرأ عليه. وكان يسمى في الكَنيسة "الشيخ المؤتمن"، ويكون له امتياز في الكنيسة واحترام كامل من الشعب.

ولكن الحاصل الآن، أن أي شاب يُرسم كاهناً اليوم، ثم يأخذ اعترافات غداً. وممكن أن يدخل شاب الدير وهو لم يتجاوز بعد سن الشباب ليبدأ حياة توبة بكل صدق وإخلاص واضعاً في قلبه أن لا ينــزل إلى العالم أبداً، ولكن دون أن يدري هو ودون أن ندري نحن، نجده بعد سنة أو سنتين في وسط العالم يأخذ اعترافات. والسؤال الصارخ الآن: كيف يمكن للمعرِّف أن يبني شخصيات الناس وهو هو

نفسه يعاني من ضعف ومن أتعاب، ولم يبلغ بعد الدرجة الروحانية التي تؤهله أن يأخذ هذه المسئولية الخطيرة، مسئولية خلاص نفس! ولادة روح! بناء شخصية!؟

ومن جهة المعترف أو المرتشد، فالخدام وجدوا في الاعتراف والإرشاد، في هذه الأيام، فرصة مواتية لتكميل خَلْع ما تبقى من شخصياتهم!! فالاعتراف الآن أصبح عذراً رسمياً يختفي وراءه الخادم ليبرر تصرفاته الشخصية، فيكفي أن يقول الخادم: "أبي في الاعتراف قال لي..."، هذا لكي يتنصل من كل مسئولية، ألم يوصِ الآباء والمعلمون بالطاعة الكاملة العمياء؟ إذن فالتخلص مما تبقى من الشخصية ليس فيه فقط راحة من حمل همِّ مسئولية التصرفات الشخصية بل ومُعتبَر أنه فضيلة أيضاً. وهنا يتبارى الخدام الآن وبتشجيع من المرشدين والمعرِّفين لخلع شخصياتهم والاستعاضة عنها بالتبعية لشخصية المرشد أو الأب.

ثانياً: روح التحزب الفكري والعاطفي:

وهذا العيب النفساني يُعتبر نتيجة مباشرة للعيب الأول الذي هو روح التبعية، فالتبعية للأشخاص تنشئ حتماً التعصب والتحزب لها. وللأسف هذا العيب أصبح عاماً وقد شمل معظم الخدام أو كلهم تقريباً. فما من خادم تقابله أو تتحدث إليه إلا وتجده تابعاً، وفي تبعيته تجده متحزباً، وفي تحزبه تجده متعصباً. وهذه في الحقيقة مُحصِّلة ختامية لفقدان الشخصية، ففاقد الشخصية يتحتم عليه أن يتحزب لشخصية أخرى يتمسك بها ويتعصب لها إلى أقصى حد لأن بوجودها يؤمِّن وجوده وبدونها يفقد كيانه.

وهنا التحزب بالنسبة للتابع إما أن يكون فكرياً وإما أن يكون عاطفياً، وهذا يعتمد على نفسية الخادم التابع وصحته العقلية، فإذا كان الخادم التابع ناضجاً عقلياً كان تحزُّبه عاطفياً، وإذا كان ناضجاً نفسياً كان تحزُّبه فكرياً، أما إذا كان ناضجاً نفساً وعقلاً فإنه مستحيل طبعاً أن يكون متحزباً لأنه لن يكون تابعاً.

والتحزب في الخدمة وبين الخدام، على أي وجه كان، مُفسد للروح المسيحية أشد الإفساد، وهو كفيل بأن يلغي رؤية المسيح تماماً حيث لا يعود ممكناً أن يتطلع الخادم إلى المسيح بوجه مكشوف لأن برقع الأشخاص يحجز ويمنع!

وبولس الرسول يقطع في عدة مواضع من رسائله[٤] أن التحزب للأشخاص والأسماء علامة أكيدة على تدهور المستوى الروحي عند المؤمنين، ويَعتبر ذلك وصمة على العبادة ويُخرجها عن مفهوم العبادة الروحية.

ثالثاً: عدم القدرة على الانسلاخ من أخلاقيات الأسرة:

ظاهرة أخرى تكاد تكون عامة بين جيل الخدام الجديد، وهي عدم قدرة الخادم على الانسلاخ من أخلاقيات وعادات أسرته، فيدخل حقل الخدمة حاملاً في تفكيره وسلوكه كثيراً من نقائص أخلاقية لا ذنب له فيها، ولكن لا مفر من القول إنها تشكل خطورة على مستواه الروحي، بل وتجعله غير مناسب للخدمة الروحية على وجه العموم. ومن هذه

---

(٤) ١كو ١: ١٠-١٧ و١كو ٣: ١-٤.

الأخلاق والعادات نذكر الآتي:

١- **سوء معاملة الخدم واعتبارهم دون مستوى الناس**، ويظهر ذلك في حرمانهم من أبسط المجاملات وفي أردأ أنواع الأكل الذي يُقدَّم لهم، وفي عدم الحفاظ على شعورهم أو الاهتمام بصحتهم أو تثقيفهم أو الاهتمام بمستقبلهم، بل ومحاولة التخلص من الالتزام بحقوقهم من تأمينات ومكافآت بطرق ملتوية مخجلة. ونحن نضع هذه النقيصة في المقدمة لأنها كفيلة أن تهبط بمستوى الخادم إلى الحضيض.

٢- **التباهي بأصل الأسرة والافتخار بالحسب والنسب والألقاب ونقاوة العرق**، وهذا من شأنه أن يطبع روح الخادم بالتعالي والاعتداد بالذات والإحساس بالتفوق والامتياز. وهذا العيب الأخلاقي إذا لازم الخادم فهو كفيل أن يعزله باطنياً عن البيئة التي يعيش ويخدم فيها، فتجده، بالرغم من انهماكه المظهري في خدمة الشباب أو الفقراء، يظل غير متجاوب معهم شعورياً ولا يستطيع أن ينـــزل إليهم نـــزولاً صادقاً أميناً بقلبه وعواطفه. وبذلك تظل خدمة تعالي وإحسان وترحُّم وشفقة، وليست تنازلاً وبذلاً ومحبة وإماتة ذات، وهذا كفيل أن يمسخ روح الخدمة والمخدومين ويُنهي على كل أمل في نموها الروحي. وبينما يزداد الخادم تعالياً بمقدرته واعتداداً بذاته بسبب نجاح الخدمة الظاهري تظل الخدمة فقيرة في الروح.

٣- **روح الانعزال والتكتل**، من طبيعة الأسرات القبطية أنها تحاول أن تعيش في انعزال حتى عن بقية الفروع الأخرى للأسرة ذاتها. والانعزال يُنشئ بدوره روح التكتل الداخلي. فإذا امتص الخادم هذه الروح ولم يستطع أن ينسلخ عنها في الوقت المناسب، فإنها تصبغ

شخصيته ثم خدمته كلها بحيث يصبح همُّه الأول هو عَزْل فصله عن بقية الفصول إن كان خادماً، أو عزل الفرع كله عن بقية الفروع إن كان أميناً عاماً. ثم تعاد الكرَّة مرة أخرى مع أصدقائه ومريديه والشبان الذين يترددون عليه محاولاً بطرق خفية ومكر نفساني وتخويفات وتهويلات أن يعزلهم عن بقية الذين لا يتبعونه، ثم يحاول أن يُكتِّلهم ضد الآخرين ليضمن بقاءهم معه. والنتيجة المحزنة هي امتصاص الشبان أنفسهم لهذه الروح الانعزالية وفقدانهم إمكانيات الأُلفة والمحبة والاتحاد مع الآخرين لتكوين وحدة عامة روحية، التي هي هدف الخدمة الأعظم، والصفة الأولى والجوهرية للكنيسة وغاية المسيح النهائية على الصليب!

٤- روح التسلط: وإن كان هذا العيب النفساني ليس بدرجة الشمول كبقية العيوب السابقة إلا أنه يشكل ظاهرة خطيرة بين كثرة الخدام. فكثير من الآباء في الأسر القبطية من محبي التسلط والاستبداد، الذين ينكرون أبسط حقوق الحرية على أولادهم حتى ولو بلغوا الرجولة، ولا يكون أمام هؤلاء الأولاد (الذين أصبحوا جيل الخدام الآن) إلا أن يخضعوا صاغرين مكرهين أمام عنف الآباء وسطوتهم الشديدة.

ولكن هذه الصراعات الحادثة داخل الأسرة لا تمر ببساطة، فالأولاد يمتصون هذا التجبُّر عينه ليصبح جزءاً من ميراثهم الأخلاقي الأُسري. فإذا ما أصبح أحد هؤلاء الأولاد الضحايا لتسلُّط الآباء وتجبُّرهم، إذا ما أصبح خادماً يوماً من الأيام، فحالاً يباشر التنفيس عن مكتوماته الأخلاقية، وتبدأ روح التسلُّط عينها والاستبداد تظهر بوضوح في خدمته، إنما متقمصة صورة تَقَوية أبوية، فيبرر تسلطه بغيرته الشديدة على الخدمة، ويبرر تجبره على نفوس الشبان بادعائه الغيرة عليهم

أو عطفه على مستقبلهم، ولكي يضمن استمراره في تجبُّره ويؤمِّن خضوعهم له يبدأ يكلمهم عن الطاعة وضرورة الطاعة وأهمية الطاعة وفضيلة الطاعة، كما كان يعمل أبوه أو أخوه الكبير معه تماماً.

والنتيجة المحزنة هي تعميم هذا العيب أو بالحري هذه المصيبة النفسانية، التي كانت مدفونة في حدود عائلة صغيرة، لتصبح وباءً يعمُّ أثره السيء على شخصيات شبان كثيرين ليعيق نموهم الروحي في الحرية البنوية التي هي أثمن هبات المسيح للكنيسة.

وإلى هنا نكتفي بهذه الصور المحزنة لأنواع الضعفات النفسانية التي تسببت في الهبوط المباشر لمستوى الخدام والخدمة بوجه عام. أما الحلول الروحية لهذه المشاكل النفسية فنرجئ الحديث عنها إلى الفصل القادم تاركين الفرصة أمام كل خادم ليناقش هذه الأمور مع نفسه.

الفصل الثالث

بناء الخادم نفسياً

(٢)

توجيهات إيجابية

تكلمنا في الفصل السابق عن بعض العيوب النفسية التي تعيق الخادم والخدمة. وهنا نحاول أن نتغلب عليها بتوجيهات إيجابية في الخدمة نفسها.

فإذا تقومت شخصية الخادم تقوَّمت الخدمة.

مقوِّمات شخصية الخادم

وهنا لا نتعرض لمقومات الشخصية بوجه عام، ولكننا نقتصر على شخصية الخادم.

فما هي مقومات شخصية الخادم الناجح؟

١- الخادم الناجح إنسان له **هدف** روحي في خدمته، محدد وواضح، يؤمن به، ويحبه ويجد فيه سعادته.

٢- الخادم الناجح إنسان له **مثل أعلى روحي**، يضعه أمام عينيه على الدوام، يشدُّه نحو الهدف الذي يسعى إليه ويجمع عواطفه ويلهب إرادته إذا فترت، للمثابرة على العمل.

٣- الخادم الناجح إنسان له **إرادة** نشيطة مرتبطة بالهدف والمثل الروحي إرتباطاً شديداً.

٤- الخادم الناجح إنسان **يعمل** بكل عواطفه وإرادته لتحقيق هدفه ويجد في ذلك سعادته.

١- هدف الخادم:

وضعنا **الهدف** بالنسبة للخادم في المرتبة الأولى لأنه يجمع شتات الشخصية مهما كانت مبدَّدة ومبعثرة. فبمجرد ظهور هدف واضح في أفق حياة الإنسان، تبتدئ شخصيته تنجمع على ذاتها، فتتحدد إرادته وتظهر عواطفه وينكشف مثله الأعلى. وبالعكس أيضاً إذا ضاع الهدف من حياة الخادم، انحلت إرادته وتبددت عواطفه واختفى مثله الأعلى، وأخيراً تنفك شخصيته وتتحلل.

أي أن الهدف الروحي ووضوحه في حياة الخادم هو المسئول عن تماسك شخصيته أو تحللها. والفرق بين شخصية متحللة وشخصية متماسكة كبير للغاية في الحياة الروحية، لأن الشخصية المتماسكة ذات الهدف والإرادة والعواطف والعمل النشيط والمثل الأعلى، تكون شخصية منضبطة، لا تلعب بها الغرائز، ولا تكون تحت سيطرة الانفعالات. أما الشخصية المتحللة التي أصبحت بلا هدف يشدُّ إرادتها ويجمع عواطفها ويدفعها للعمل بنشاط، فهي شخصية غير منضبطة تتحكم فيها الغرائز والعواطف الهوجاء والانفعالات المكبوتة.

لذلك نقول، إن أعظم توجيه يمكن أن يقدَّم للخادم الذي يشكو من ظروف تكوينه النفسي ليتغلب على المؤثرات التي أحاطت به وليصبح ذا شخصية متماسكة منضبطة حرة متسامية فوق الغرائز والانفعالات، هو أن يحدد لنفسه هدفاً في خدمته بحيث يصبح هذا الهدف واضحاً جداً أمام عينيه.

علماً بأن الخدمة في حد ذاتها لا تصلح أن تكون هدفاً، بل يلزم أن يكون الهدف أعلى من الخدمة. **فماذا يكون الهدف من الخدمة؟**

معروف أن كل خدمة يقوم بها أي إنسان إما يكون هدفها المنفعة الشخصية بأي لون من الألوان، وهذا لا يمكن أن يكون هدفاً روحياً على الإطلاق، وإما يكون هدفها بدون منفعة شخصية، وهذا معناه أن تصير الخدمة محبة وبذلاً فقط. فنحن إذن لسنا مخيَّرين في انتخاب هدف لخدمتنا، إذ يلزم بصورة حتمية لكي يكون هدف الخدمة روحياً وبدون منفعة شخصية أن يكون محبة وبذلاً فقط، ولكي يكون هذا الهدف خالياً من حركات العواطف وسيطرة الانفعالات، **يلزم أن يكون مقدَّماً حباً في الله أولاً، ثم حباً لكل الناس بلا تمييز.**

وهكذا ننتهي إلى أنه يتحتم على الخادم الذي يريد أن تكون له شخصية سوية في الخدمة، أن يضع أمام عينيه الهدف من خدمته بصورة واضحة ودائمة. على أنه لا يمكن أن يكون للخادم هدف صحيح في خدمته إلا المحبة في صورة البذل – بدون أية منفعة شخصية – إنما حباً في الله كالوصية، بحيث يكون الخادم حساساً ليكشف أي ميل في نفسه تجاه أية منفعة ذاتية من خدمته، فيبترها في الحال. لأن قبول أي منفعة بأي شكل من الأشكال، كفيل بأن يجعل هدف الخدمة مُزيَّفاً، فتصبح الخدمة وبالاً على شخصية الخادم، إذ تبنيه على الأثرة – أي حب الذات – ويصبح كل سعيه وجهاده ونشاطه في الخدمة من أجل حب نفسه وليس حباً في الله، وهنا لا يمكن أن يسمَّى البذل بذلاً روحياً بل تجارة، لأنه على قدر العطاء يكون الربح، وبازدياد الربح تزداد الغيرة في البذل، وهكذا تدور الخدمة في حلقة الذات المفرغة. **وهنا يبدو لنا ضرورة المثل**

الأعلى الذي يضبط الحب الباذل، أي هدف الخدمة، ويصححه أولاً بأول.

٢- المثل الأعلى:

يمكن أن يكون للخادم أمثلة كثيرة للبذل في الخدمة يحقق بها ذاته ويزكيها. فهو يمكن أن يكون كبولس الرسول الذي خسر كل شيء وحَسِبَ كل شيء نفاية من أجل المسيح وخدمته، ويمكن أن يكون كاستفانوس الذي سلَّم الجسد للرَجْم ثمناً للنطق بالحق والشهادة للمسيح، ويمكن أن يكون كأثناسيوس الذي وقف ضد العالم كله ليحفظ وديعة الإيمان إلى النفس الأخير. وهكذا أمثلة لا حصر لها، وهذه الأمثلة كلها تشجعنا جداً وتلهب إرادتنا وتجمع عواطفنا وتدفعنا للعمل في الخدمة بلا كلل، ولكن نخاف لئلا يحدث أن النفس تتحول خلسة من النظر إلى بذل هؤلاء الرسل والشهداء وبقية الخدام المشهورين إلى النظر لشهرتهم وصيتهم الحسن، فتتحول الخدمة إلى استعراض قدرات للفوز بتقليد هؤلاءِ الأبطال لاكتساب شهرة كشهرتهم وصيتاً كصيتهم، لأجل هذا قال بولس الرسول: «كونوا مُتمثِّلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح» (١كو ١١: ١)، أي: إن أردتم أن تتشبهوا بي، فانظروا كيف تشبَّهت أنا بالمسيح.

لذلك، فلا مفر أمامنا من البحث عن مثل أعلى لا نستطيع أن نحقق من ورائه أي تثبيت جديد لذواتنا، بل يكون مجرد التشبُّه به موتاً لذواتنا، **فماذا يكون هذا المثل إلا يسوع المسيح؟** هذا هو وحده الذي إن عاش فينا حقاً مُتنا عن ذواتنا بالحقيقة! «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» (غل

٢: ٢٠). لذلك جيد للخادم أن يعيش فيه يسوع المسيح، في فكره، في قلبه، في روحه، في أعضائه، كمَثَله الأعلى في الخدمة، في البذل، في الحب المجاني، لأن المسيح مَثَل واضح غاية الوضوح للخدمة وللبذل الذي بدون منفعة شخصية:

+ اُنظره وهو يجول يصنع خيراً، والكل يتزاحم حوله ويقبِّل يديه ورجليه وثوبه، وهو منهمك في عمل الرحمة بدافع المحبة الخالصة، غير ملتفت إلى نفسه بل ملتفتاً إلى الصليب الذي وُضع له في نهاية طريق الخدمة كإكليل حقيقي.

+ اُنظره وهو يتحدث إلى تلاميذه بكل حب وإشفاق، ويهوذا جالس في وسطهم والرب ينظر إليه ويحدثه هو أيضاً بنفس الحب والإشفاق، غير ملتفت إلى يوم الخيانة أو قُبلة التسليم أو صُرة الثلاثين من الفضة؟

+ اُنظره وهو يمرق من وسط المعجبين بكلامه وأعماله ويتحاشى الأيدي الممتدة لتمسكه وتجعله ملكاً، لأنه للموت جاء لا للجلوس على كراسي المُلك والعظمة؟

+ اُنظره وهو مهان ومذلول، مضروب مُعرًّى، حاملاً صليبه إلى مكان الصلب ليكمل إرادة المحبة والآب الذي أرسله؟

لا يمكن أن يكون لنا مَثَل للخدمة والبذل والحب وطاعة الله إلا المسيح يسوع ربنا. إنه وحده المثل الكفيل بأن يمتص كل ما فينا من ذات نفعية وغرور وطموح كاذب.

وإن كان أي مثل أعلى يحبه الإنسان ويُخلص له كفيلاً أن يُنشِّط الإرادة ويسيطر على فكر الإنسان ويدفعه للعمل باجتهاد، فالمثل الأعلى للخادم – وهو يسوع المسيح نفسه وقد انطبعت صورة وجهه المكلل

بإكليل الشوك في القلب على الدوام - كفيل أن يلهب الإرادة بالغيرة كالنار، فلا يعود الخادم يعرف لنفسه حدوداً في الحب أو البذل، وتصير عنده أصعب الخدمات وأشقاها سهلة لذيذة يجترئ عليها، حتى ولو كانت ضد طبيعته، حتى ولو كَمَنَ الموت فيها.

لذلك فإن كان المثل الأعلى ضرورة لتنبيه الإرادة عند أي إنسان يجاهد من أجل الوصول إلى هدف معين، فيسوع المسيح كمثل أعلى بالنسبة للخادم يُعتبر ضرورة حتمية لضمان حفظ الإرادة متّقدة نشيطة طاهرة من عيب الذات لتكميل الهدف الموضوع أمامه.

كذلك فإن كان غياب المثل الأعلى عن عين أي نفس كفيلاً أن يطفئ حرارة الإرادة في السعي وراء الهدف، فغياب يسوع المسيح عن عين الخادم كفيل أن يحل الإرادة من الهدف المقدس، وحينئذ يعطي الفرصة للأهواء والنـــزوات والانفعالات أن تسود وتتحكم في الإرادة وفي التصرفات جميعاً.

إذن فربط الهدف في الخدمة وهو **البذل** بيسوع المسيح **كمثل أعلى**، يُعتبر الحجر الأساسي في بناء نفسية الخادم وأكبر ضمان لحفظ الإرادة في أعلى كفاءتها.

٣- الإرادة النشطة:

الإرادة وجودها مربوط دائماً بوجود الهدف، ونشاطها رهن بوضوح المثل الأعلى في القلب من حين لآخر. فإذا كان هدف الخدمة أي المحبة الباذلة واضحاً ومحبوباً لدى الخادم، وإذا كان المثل الأعلى للمحبة الباذلة وهو شخص يسوع المسيح واضحاً ومحبوباً أيضاً، فإن الإرادة تكون

متنبهة دائماً وفي حالة تحفُّز ونشاط وقوة.

وهكذا إذا بدا على إرادة الخادم أعراض من الضعف والانحلال، فينبغي في الحال مراجعة أصالة الهدف وصدق المثل الأعلى، لكي يتحقق أن المحبة والبذل هما فعلاً هدف الخدمة عنده وأن يسوع المسيح مثله الأعلى الحقيقي.

أما ضعف الإرادة عند الخادم، فهو يكشف عن عدم وضوح رؤية المثل الأعلى أي المسيح. وأما انحلال الإرادة فإنه يكشف عن ضياع الهدف بأكمله. أي زوال محبة البذل. في حين أن الإرادة القوية تكون برهان وجود هدف واضح ومثل أعلى محبوب. فالخادم ذو الإرادة القوية هو الذي صمَّم بالفرح على البذل والمحبة مهما كانت الظروف المعاكسة، ووضع المسيح أمام عينيه كمثل أعلى لا يحيد عنه.

ومعروف أن الإرادة تتبعها العواطف وتلتحم بها، فالإرادة في حد ذاتها كأُم، والعواطف كأولاد لها، فإذا كانت الأم قوية ونشيطة فإنها تتحكم في أولادها، هكذا الإرادة القوية النشيطة فإنها تتحكم في عواطف الإنسان وتجمعها كلها تحت سيطرتها لتعمل وتجاهد بها. أما الإرادة الضعيفة فإن العواطف تفلت من زمامها لتسوق الإرادة والإنسان كله كيفما تشاء. لذلك فالقوة التي نستمدها لإرادتنا في الخدمة من تثبيت الهدف على المثل الأعلى الذي نحبه، وهو المسيح، تجعلنا نُسيطر على عواطفنا ونوجهها كلها لحساب الهدف أي محبة البذل، كرامة وحباً لمثلنا الأعلى الذي نعيش له ونقتفي آثاره.

ومعروف أيضاً أن الإرادة هي التي تسيطر، لا على الخدمة فقط، بل على كل أمور الحياة العادية. لذلك كلما وجهنا عنايتنا للإرادة، كان

ذلك بمثابة تقوية شاملة لبنيان الشخصية وزيادة كفاءتها في مواجهة أعباء الحياة كلها وبالتالي الخدمة. وينبغي أن نعلم أن الإرادة ليست شيئاً له وجود في حد ذاته، ولكنها محصِّلة العواطف والدوافع المهذبة والمقبولة عند الإنسان. لكن ضد الإرادة تقف الخبرات المؤلمة والعواطف والدوافع الغريزية غير المهذبة وغير المقبولة التي رفضها الإنسان أو أهملها، وهي كلها يسميها العلماء بـ "**العُقَد المكبوتة**"، وهذه تقف خلف الإرادة وتقاومها وتضعفها وتطفو أحياناً فوق سطحها فتسيء إلى سلوك الإنسان وشخصيته، ولا يمكن تصفية هذه العُقد وتقوية الإرادة إلا بالعمل، العمل الروحي الصحيح والمتواصل تحت تدبير أب روحي يوجه العمل ويغذي العواطف بالمثل العليا الصحيحة والوعظ المريح للنفس.

٤- العمل الروحي:

لا يوجد في جميع وسائل بنيان شخصية الإنسان وتقوية إرادته مثل العمل، العمل على وجه العموم وخصوصاً إذا كان مع آخرين، وعلى مستوى الحركة والنشاط، وتحت ملاحظة أب أو مُدبِّر أو رائد ناضج. وبالأكثر جداً إذا كان العمل هو الخدمة الروحية من تعليم وافتقاد وعطف على الآخرين فيكون هذا بحد ذاته أعظم خدمة نقدمها لنفسية الخادم نفسه، فالخادم الذي يعلِّم الآخرين لا حباً في التعليم أو الظهور ولكن عن محبة البذل، ويفتقد الآخرين لا بإحساس المتفضِّل والكبير بل بإحساس المشاركة الوجدانية مع الآخرين، ويعطف على الضعفاء والمرضى والفقراء لا بدافع الواجب بل بدافع المحبة الروحية التي يستقيها من مثله الأعلى، فإن هذا العمل الروحي بالنسبة للخادم سوف يعيد بناء

شخصيته ويقوي إرادته ويصفي كل عُقَده وأتعابه النفسية يوماً بعد يوم، خصوصاً إذا كان الأب الروحي على وعي كامل بدقائق خدمة الخادم وظروفها ومقدار نموه.

والعمل الروحي الذي يقوم به الخادم كل يوم وعلى مدى الأيام كلها، هو وحده الكفيل أن نقيس بواسطته صحة الهدف الذي وضعه الخادم غاية لحياته الروحية كلها، ومقدار صدق المثل الأعلى الذي اتخذه لنفسه ومدى قوة الإرادة التي يسيطر بها على عواطفه وانفعالاته.

فمستوى أمانة الخادم في أداء عمله يكشف عن عمق الهدف عنده، أي عمق المحبة الباذلة.

ومستوى الحرارة والغيرة التي يؤدي بها خدماته، تكشف عن مدى تمسك الخادم بالمسيح كمثله الأعلى.

ومستوى نشاط الخادم ومثابرته وصبره ورزانته في ممارسة خدماته تكشف عن مقدار سيطرته على إرادته.

ومستوى نمو شخصية الخادم وتقدُّم بنائه النفسي والروحي يكشف عن صحة وجدية العمل الروحي الذي يقوم به.

+ وهكذا نجد أن الخادم يكتشف في الخدمة الروحية إمكانياته الروحية والنفسية كلها.

+ وإن كل ضعفات الخادم النفسية بقدر ما تكشفها الخدمة بقدر ما تتولى الخدمة نفسها إصلاحها وإعادة بنائها.

+ وهكذا فإن بناء الخادم نفسياً لا يتم إلا من داخل الخدمة وبواسطتها، وإنما كل ما نلحُّ عليه هو المثابرة والرعاية الروحية.

الفصل الرابع

البناء الروحي للخادم

(١)

مقدمة

نحن لا نعرض هنا للبناء الروحي العام للشخصية المسيحية، ولكننا نقتصر بنوع مخصوص على بناء الخادم روحياً بالقدر الذي يكفل له المقدرة على بناء الأطفال والشباب.

لذلك فنحن نفترض هنا أن أمامنا مجموعة من الخدام متباينة الاستعدادات والكفاءات والمواهب الروحية نريد أن نبنيها روحياً.

فما هي الخطوط الروحية الأساسية التي تحدد الإطار العام للمناهج اللازمة لتدريس ورعاية هؤلاء الشبان ليصبحوا خداماً روحيين؟

ينبغي هنا أن نعلم يقيناً أن "الروحانية المسيحية" حسب منطق التقليد الأرثوذكسي ليست شيئاً يُكتسب بالاجتهاد الشخصي، أو بمجرد دراسة الكتاب المقدس والتأمل في آياته ورواياته، وتصفُّح بعض الكتب الروحية؛ ولكن الروحانية المسيحية في المفهوم الأرثوذكسي هي تقليد تسليمي يشمل:

أولاً: "الحياة النسكية": بصلواتها المقررة، **وأصوامها** الرسمية، وممارسة العبادة والاشتراك في الأسرار داخل الكنيسة في مواعيدها المحددة ومواسمها أولاً بأول بكل دقة وانتظام.

ثانياً: ثم يلي بعد ذلك: **التمكن من العقيدة** التي تُلقِّن الشخص ما ينبغي أن يؤمن به ويتمسك به قلبياً تمسكاً لا يزعزعه أي شك أو إرهاب حتى الموت.

ثالثاً: التبحُّر أولاً بأول في **أصول السلوك المسيحي**، أي ما ينبغي أن يُقال ويُعمل، وما لا ينبغي أن يُقال أو يُعمل. حيث يتربى الضمير على أصول التقليد الأبوي كما عاشته الكنيسة الأرثوذكسية على ممر العصور.

رابعاً: تكوين **علاقات روحية خالصة** مع الرب يسوع مُفعَمة بالمحبة حيث يدخل الشخص في اختبارات روحية خاصة مع الله تزيده حرارة واستنارة وتمييزاً (إفرازاً).

وليلاحظ القارئ أهمية ترتيب هذه العناصر الأساسية في البناء الروحي:

١- فالحياة النسكية تأتي في المقدمة بالنسبة للبناء الروحي، وهنا لا نقصد من كلمة "النسك" التخصص الكلي على مستوى الرهبان والمتوحدين، ولكن نقصد به **العمل الروحي بوجه عام**، كالصلاة والصوم وبقية أعمال العبادة وهذه هي بدء كل بداية.

٢- ولكي يكون العمل الروحي صحيحاً، يلزم أن تغذيه العقيدة الأرثوذكسية أولاً بأول. لذلك تأتي الدراسات العقائدية في التسليم التقليدي كسند دائم للعمل النسكي حتى تجنبه الانحرافات.

٣- ولأن الخادم هو أكثر الناس اتصالاً بالآخرين حيث تكون علاقاته وتصرفاته وسلوكه جزءاً هاماً في وظيفته الروحية، لزم أن يكون متبحراً في أصول السلوك المسيحي، يفرِّق بتلقائية روحية بين ما يليق

وما لا يليق قولاً وعملاً.

٤- ولأن الخدمة الروحية ليست مهنة تدريس بل فيض روحي، والفيض الروحي يحتاج إلى ملء مستمر، لزم أن تكون حياة الخادم ذات خبرات روحية دسمة متجددة باستمرار.

أما الغاية النهائية التي تربط معاً هذه العوامل الأربعة للبناء الروحي بالنسبة للخادم فهي أن يكون إنساناً كاملاً في المسيح.

الفصل الخامس

البناء الروحي للخادم

(٢)

أولاً: العمل النسكي

المسيحي بوجه عام هو إنسان ناسك يحب الصلاة، ويفرح بالأصوام ويبتهج بالعبادة. أما الخادم فهو إنسان يسعى نحو الكمال المسيحي، لذلك فاشتياقه الدائم هو أن يجعل من وصايا الرب يسوع قانوناً لحياته يضبط به نفسه وكل مشتهياته فكل ما يحبه المسيح يصبح غاية سعادته.

الصلاة:

الصلاة عند الخادم بوصفها عملاً نسكياً تفوق وضعها كفرض أو كواجب لتصبح غذاءً يومياً. فهي قمة الأعمال النسكية التي يفرِّغ فيها الخادم كل طاقاته، لأن من خلال الصلاة يخلق الله للخادم قلباً جديداً، وبواسطتها تستقيم روحه فيه وتستقر في الله ليصبح الله بواسطة الصلاة مصدر راحة وسلام أبدي.

الصلاة النسكية عمل روحي خلاق، يخلق على طول المدى مواهب وقدرات لم تكن من طبيعة الإنسان بل ولم تكن تخطر له على بال. والصلاة النسكية اصطلاح أرثوذكسي يقصد به الصلاة التي تؤازرها الأصوام والعبادة داخل الكنيسة.

وأعظم أعمال الصلاة النسكية التي لا يمكن أن تقارَن بأي شيء آخر، هي التي بواسطتها يستطيع الخادم الأمين المخلص أن يدخل في حياة

عشرة مع الله بواسطة الروح القدس، حيث يبلغ الخادم هنا نهاية أمله ورجائه، إذ يصبح منقاداً بروح الله، حتى أن كل ما يصنع ينجح فيه.

وبينما تكون الصلاة العادية قادرة أن تنفخ في الإنسان العادي روح الرجاء وقت الشدة، نجد أن الصلاة النسكية المؤازرة بالصوم والعبادة قادرة أن ترفع طبيعة التفكير والتدبير لدى الخادم إلى مستوى الإلهام والثقة الدائمة في الله بصورة إعجازية. وهنا يكفي أن نقول – في سر – إن الصلاة النسكية هي دائماً مصدر قوة وروحانية، فلا عجب إن وضعناها كأساس أول راسخ في البناء الروحي.

وليس المجال هنا متسعاً لشرح أصول الصلاة النسكية وقوانينها. ولكن نكتفي بأن نلفت النظر إلى ضرورة اتّباع قانون الصلاة البسيط الذي يلتزم به العلماني الورع، وهو الصلاة ثلاث مرات في الأربع والعشرين ساعة، أي في باكر عند اليقظة من النوم مباشرة، وفي المساء قبل النوم، وفي نصف الليل (قبل الفجر) حسب ما هو مدون بالأجبية. وما زاد على ذلك فهو فضل من الله ونعمته.

والصلاة الحقيقية تكون بتوسل وقرع صدر واستعداد دائم للسجود والإنجيل مفتوح، لتمزج القراءة بالصلاة والتشجع بمواعيد الله. والمزمور تقوله من القلب وليس من الشفتين. وتفسح المجال في كل صلاة لعرض توسلات النفس. والخادم محتاج جداً أن يحوِّل أياماً برمتها للصلاة ويقضي ليالي بأكملها في الصلاة والتسبيح.

الصوم:

الصوم عمل نسكي، وبالنسبة للخادم يكون بمثابة القوة الدافعة التي

تؤمِّن له كل جهاد، فالصوم يزكي الصلاة، يضبط القلب إزاء الشهوات، يضبط النفس إزاء الانفعالات، يضبط الفكر إزاء التشتت والاضطراب، ويضبط اللسان ويقوده إلى الرزانة.

الصوم سلاح روحي فعَّال لقمع الطبيعة وتهذيب الحواس. وكل الذين أتقنوا استخدام هذا السلاح برعوا في ضبط أنفسهم فانطبع على جبينهم سمة الروحانيين.

الخادم الصوَّام يعبر على فخاخ الشيطان، من عثرات وأتعاب وضيقات، بخفة كمن له جناحان. وتؤهِّله أصوامه للدخول في أسرار الروح والتعمق فيها حتى يشرق عليه نور المسيح، فتتربى عنده حاسة المعرفة والتدبير والتمييز، التي هي رأس مال الرجل الروحاني وقمة النعم.

وليس المجال هنا لشرح أصول الصوم النسكي ودرجاته وفترات انقطاعه، ولكن يكفي أن نشير على الخادم مبدئياً أن يلتصق بقوانين الكنيسة والتمسك بها من جهة الأصوام وترتيبها، على أن لا يستثقل كثرة الصوم. فالصوم هو العملة السمائية الصعبة التي إذا حصلنا عليها استطعنا أن نقتني – بالامتناع عن الأطعمة والملذات الأرضية – قوة روحانية واضحة سماوية. وبقدر ما نصوم نسمو.

وإن كانت الصلاة جُعلت في الأساس، فالصوم بالنسبة لها قوة التسليح التي سوف تجعل البناء الروحي يحتمل كل أثقاله. والخادم محتاج إلى أصوام خاصة يفرضها عليه أبوه الروحي ليعجم(٥) عوده.

---

(٥) يعجم بمعنى يختبر صلابة عوده.

الاشتراك في العبادة:

الخادم لا يحضر الصلاة مجرد حضور، ولكنه يشترك فيها، فالخادم مفروض أنه شماس. فالشماس مسئول عن إقامة كل الصلوات في الكنيسة، يعدُّ لها ويرتبها، فهو لا يمارس الصلوات الطقسية لنفسه فحسب بل هو مسئول عن تقديمها للآخرين. فالعبادة بالنسبة للخادم هي ملء وبذل بآن واحد، يأخذها ويعطيها. فهي بذلك عمل روحي نسكي كثير المنفعة يبني روح الخادم على أساس أنه بقدر ما يأخذ يعطي، وبقدر ما يمتلئ يفيض، وبقدر ما يتعزى يعزي الآخرين.

الخادم يقف شريكاً في كل صلوات الكنيسة، مقدِّماً نفسه الخاشعة لكل الشبان الذين يخدمهم نموذجاً حياً رائعاً لكيفية العبادة والخشوع والاقتراب إلى الله.

وفي لحظات الصلاة والعبادة والخشوع والتقرب إلى الله يبلغ التعليم المسيحي، بمقتضى التقليد الأرثوذكسي، قمة أصالته وصِدْقه، حيث يكون الخادم والمخدوم، المعلم والتلميذ، كلاهما على مستوىً واحد من الأخذ. البناء الروحي هنا بناء من الله، فالمعلم والتلميذ كلاهما يتقبلان بناءً سرياً، المعلم يظهر كأنه يبني تلاميذه وهو في صميم واقعه يبنيه الله. الكل هنا يُبنى من الله بمؤازرة ورُبُط سرية، كبناء واحد ينمو هيكلاً روحياً!

لذلك يُعتبر اشتراك الخادم في العبادات الطقسية بمواسمها المختلفة عملاً روحياً بالغ القيمة لنفسه وللخدمة، إذ يأتي مكمِّلاً لصلاة الخادم الخاصة فيجعل من حياة الخادم الداخلية صورة مضيئة علنية، يرى فيها تلاميذه

ومريدوه نوراً يمجدون الله بسببه.

الخادم محتاج أن يتعلم على يد مرتل الكنيسة أو شماسها كل أصول الخدمة وتسابيحها.

التجرد:

المسيح عموماً إنسان يرى أن أية خسارة تعرض له في سبيل أمانته للمسيح، تُعتبر ربحاً. أما الخادم فهو أكثر جرأة، لأنه يُقْدم على الخسارة بإرادته ليزداد ربحه، يتنازل عن راحته باختياره ويضحي بالأجر الإضافي والربح الزائد ليقضي وقته في الخدمة، يثابر بالتقوى لحساب ربح الآخرين الروحي.

العالم في نظر الخادم يفقد شكله الساحر المملوء إغراءات وغوايات، لأنه من خلال صلاته وأصوامه ومواظبته على العبادة في الكنيسة تتربى فيه عين روحانية فاحصة تميز بين الباطل والحق. لذلك فعندما يعرض عليه العالم أمجاده وغواياته، لا تجد عنده قبولاً، لأن كنز قلبه يكون قد استقر في الروحيات. فهو يكتفي من العالم بما يكفل له حياة الكفاف، لأن سعادة قلبه لم تعد في اقتناء الأخشاب والأقمشة الملونة والتحف ووسائل المسرات والملذات، بل في اقتناء الروح مصدر السعادة الحقيقية للنفس.

+ **المال ذلك السيد الساحر الذي سلب لب الدنيا** بأسرها وطوح بهامات الجبابرة، ليس له في قلب خادم المسيح إقامة، بل وليس سيداً على الإطلاق، هو خادم حاجات فقط يأتي ليعبر، ولا يُطلب إلا عند الضرورة. إذا ازداد رصيده كان ذلك إشارة من الروح لزيادة الخدمة،

وعندما ينضب تماماً تحل مكانه النعمة.

الخادم المبتدئ يُطالَب بالعشور وهو يعطيها باحتراس وتقتير، فإذا تحركت النعمة في أحشائه لا يستطيع أحد أن يقنعه بالكف عن العطاء فهو لا يرتاح طالما كان عنده ما يمكن أن يعطيه، ويظل يعطي ويعطي مما له حتى يستقر أخيراً، على أنه لن يستريح حتى يعطي نفسه بكل ما لها. فالمال الذي محبته أصل لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة، يصبح للخادم الأمين باباً مفتوحاً للتقرب إلى الله وخبرة حية للدخول في أعماق الإيمان والإحساس بالتوكل على النعمة، وتدريباً متواصلاً على مقايضة الملكوت بالقروش والجنيهات.

+ **المسرات الدنيوية وأدوات الملاهي** التي أصبحت من أعواز إنسان العصر الحديث الذي يتباهى بالإنفاق عليها حتى إلى نصف مرتبه، إذ يجد فيها عزاءه الوحيد وتسليته وراحة نفسه، هي بالنسبة للخادم مصدر القلق النفسي، ومَضْيعة للوقت، وإتلافاً للصحة والمال، وإفساداً للصلاة وللمزاج الروحي عموماً، وتبديداً لطاقة التوبة أولاً بأول.

عزاء الخادم هو في صلاته، وتسليته هي في قراءاته الدسمة المنعشة، وراحة نفسه هي في اعترافه، مسرته الكبيرة هي في حصاده اليومي لثمر جهوده في الخدمة والافتقاد.

+ **الشهرة والكرامات والصيت الحسن**، التي طالما استعبدت النفوس وجعلتها تنفق الأموال والجهود وتسهر وتتذلل وترشي وتلحس التراب، هي بالنسبة للخادم إنما يكمن فيها ضلال وخطر، وانهزام قد لا يكون فيه قيام. لذلك تتحاشاها النفس الحريصة بقدر قوتها، وتتحايل للتخلُّص من

فخاخها، لأنها ترى فيها ثقلاً كفيلاً أن يغرق مركب النفس في مسيرتها الحرجة المحفوفة بالمخاطر إذا لم تنتبه إلى موازنته بالتذلل والمحقرة. لذلك فالخادم الحاذق يتدرب كل يوم كيف يتخلص من هذه الأثقال الباهظة ويلقيها من مركب حياته كبضاعة مدسوسة تالفة عديمة القيمة في مجال التقوى، وفن التجارة الروحية.

+ **الهوى والعواطف والشهوات الجنسية**، التي هي بالنسبة للعالم القوة المحركة لكل الملذات وأطماع الناس وطموحهم والمركز الطبيعي لنشاطات النفس والسر المخفي وراء كثير من الصراعات في الأسر والجماعات والشعوب والحروب، هي بالنسبة للخادم بخور يحرقه على مذبح الحب الإلهي، طاقة اشتعال نفساني لا يهبط إلى مستوى الجسد ليشعل بها أعضاءه فيبدد حرارتها في لذة حسية، بل يسمو بها إلى مستوى الروح فيحولها إلى لهيب روحي لتجديد الذهن وإضاءة طريق الحياة والخلود.

+ **الخادم الروحاني تاجر لا يكف عن المقايضة**، ليحول كل ما تصل إليه يداه من الجسديات إلى الروحيات. فالهوى الطبيعي الذي يُحسب أقوى من الطاقات العاطفية في الإنسان التي تجمع الأجساد وتوحدها، إذا ما وضع عليه الخادم الروحاني يديه وملك زمامه، حوَّله إلى طاقة محبة روحانية عالية تؤالف بين نفسه والله ثم بين نفسه وكل إنسان، كعاشق عنيد لا يرتاح إلا في جذب النفوس إلى شبكة حب المسيح التي جذبته!! «خَطَبْتُكم لرجل واحد، لأُقدِّم عذراء عفيفة للمسيح» (٢كو ١١: ٢).

ولكن لأن الهوى الجسدي مغروس غرساً طبيعياً في الأعضاء والفكر وهو لا يكف عن أن يجذب انتباه الإنسان بإلحاح إلى حاجة الطبيعة،

أصبح من المحتم على الإنسان الروحاني أن يجاهد بالعمل النسكي ليحوِّل هذا الإلحاح عن مجراه الطبيعي إلى ما هو فوق الطبيعي. لذلك فهو وإن ابتدأ جهاده مع العاطفة سلبياً، إلا أنه يبلغ بها في النهاية إلى منتهى الإيجابية حينما يسمو بها إلى مستوى المحبة المُنــزَّهة عن اللذة الحسية والأنانية، حينما يبلغ بالنفوس إلى مستوى حضن المسيح «خطبتُكم لرجل واحد»!

+ **خادم المسيح حينما يتحرر من عبودية العواطف** التي تعمل على مستوى اللحم والدم ويدخل في حرية الروح التي تغذيها المحبة الإلهية يصبح صياداً حاذقاً للناس، ويُستأمن على شبكة المسيح التي يطرحها بمهارة على النفوس ويجذبها بمكر روحاني ليفرغها كل يوم في حضن المسيح.

ولكن الخادم الذي لم يُفرِّغ قلبه من هوى النفوس ويحرر نفسه من شهوة اللحم والدم فهو يصطاد لنفسه وليس للمسيح، ويبدد رصيده أولاً بأول.

لذلك فالعمل النسكي بالنسبة للإعلاء بالهوى الجنسي، هو رأس مال الخادم بصفته صياداً يصطاد لحساب آخر.

لذلك تظل العواطف والانفعالات الجنسية تهدد خدمة الخادم لتصبغها بالصبغة الجسدانية، بل وتجعل خدمته قريبة من الخطيئة، إلى أن يدخل في لهيب حب المسيح الذي هو وحده كفيل أن يحرق رباطاتها، فتنحل الشهوة من ذاتها ليدخل الجسد في راحة الروح وتستنير النفس بطهارة المسيح.

ولا توجد وسيلة للدخول في لهيب حب المسيح إلا بالتدرج المتواصل في العمل النسكي بالصلاة، بالصوم، بالعبادة، بالتجرد من شهوة الاقتناء، من شهوة المال، من شهوة الملاهي، من شهوة الكرامات!

****

وإذ نأتي إلى ختام العمل النسكي نعود فنكرر ضرورة الربط التدريجي بين مقوماته.

إذ لا يمكن أن يبدأ الخادم بالجهاد ضد انفعالاته الجنسية وهو لا يواظب على الصلاة.

ثم إن الصلاة بدون الصوم تتبدد قوتها.

ولكي يصبح الصوم قوة، لابد من مؤازرة النعمة.

والنعمة لا يُحصل عليها بدون المواظبة على العبادة والاشتراك في الأسرار.

والتجرد هو بمثابة خلع الأسلحة الجسدية التي يحارب بها الجسد ضد الروح.

وحينما يتجرد الجسد من أسلحته تتهيأ الروح بالضرورة لقبول أسلحة الروح القادرة أن تدكَّ حصون العدو، «**إذ أسلحة محاربتنا ليست جسدية، بل قادرة بالله على هدم حصون**» (٢كو ١٠: ٤).

الفصل السادس

البناء الروحي للخادم

(٣)

ثانياً: بناء عقيدة الخادم

البناء النسكي للخادم كما قدمناه في الفصل السابق يهتم بتكوين المزاج الروحي المناسب للخادم، غير أن هذا البناء لا يمكن وضع قوانين محددة عامة له يخضع لها الجميع لينمو الكل نمواً موحداً، لذلك نجد أن المزاج الروحي يتفاوت من خادم إلى خادم، من جهة:

أولاً: القدرة على التعمق في الصلاة واكتساب بصيرة التأمل،

ثانياً: الصبر والمداومة على الصوم وبلوغ درجات من الشفافية الروحية،

ثالثاً: النشاط والغيرة في العبادة داخل الكنيسة والوصول إلى درجة الالتحام بالطقس روحياً،

رابعاً: التوفر على التجرد وضبط الأهواء والشهوات والعواطف للسلوك بالروح تحت قيادة الروح القدس.

لذلك يجيء البناء العقائدي للخادم كضرورة حتمية لإرساء البناء النسكي على قواعد لاهوتية عامة ثابتة موحدة، ولتأمين النسك ضد أي انحراف أو نظرات خاصة، بحيث لا يصبح التفاوت في المزاج النسكي سبباً في الانقسامات بين الخدام، الذي يؤدي بالتالي إلى بلبلة الخدمة

وتشيُّع الشبان لهذا الخادم أو ذاك.

فإن كان البناء النسكي يهتم بنمو الفرد في علاقاته بالله، فالبناء العقائدي يهتم بأن يجعل هذا النمو الفردي داخلاً ضمن إطار نمو عام ثابت للجماعة، أي الكنيسة، على مدى العصور كلها حتى النهاية.

والآن لا يتسع لنا المجال هنا لتقديم منهاج للعقيدة المسيحية التي ينبغي أن يُبنى عليها المزاج اللاهوتي للإنسان المسيحي بوجه عام، فهذا نتركه للدراسات المدرسية والكتب اللاهوتية، وإنما نحدد أنفسنا في هذا المقال بالنسبة للسمات الأرثوذكسية الخاصة في العقيدة المسيحية التي ينبغي أن يتسم بها الخادم الأرثوذكسي في الكنيسة القبطية.

السمات الأساسية للعقيدة الأرثوذكسية

أولاً: التمسك بأصول التعاليم الآبائية الأولى

تعتبر الكنيسة الأرثوذكسية هي الوحيدة بين الكنائس — سواء الكاثوليكية أو البروتستانتية — التي لا تزال تتمسك بالمعايير الآبائية للكنيسة الأولى بوصفها المعايير الصحيحة التي لها العصمة والاحترام والحق والقول الفصل.

فكما كانت الكنيسة الأولى تصلي وكما كان الآباء الأُول يصلون، هكذا ينبغي ويتحتم أن نصلي الآن بلا اختصار أو تعديل. وإن كان لابد أن يكون هناك اختصار أو تعديل لما وصل إلينا من صلوات زادت على مر الأيام، فيتحتم أن يكون التعديل وفق التقليد القديم كما هو مدوَّن في كتابات الآباء وصلواتهم. وما يقال في الصلاة يقال في الصوم والعبادة وممارسات التجرد.

فالروح الأرثوذكسية محافظة أشد المحافظة على التقليد بكافة فروعه وأنواعه، وهي تجزع أشد الجزع من الخروج على القاعدة العقائدية التي كانت متَّبعة لدى الآباء، فهي في نظرها الحق كل الحق وكل ما عداها تخريج بشري. فأي مجادلة أو نقاش أو نـــزاع في فهم أي نقطة من نقاط العقيدة مرجعه النهائي إلى أقوال الآباء الأُول، فبمجرد بروز رأي متفق عليه للقديسين أنطونيوس أو أثناسيوس أو كيرلس أو من قبلهم أو من

بعدهم من مشاهير النساك القديسين واللاهوتيين كفيل بأن ينهي على كل نـــزاع.

وإزاء هذه الدعامة الهامة في الفكر اللاهوتي الأرثوذكسي أصبح مستحيلاً لأي مجمع أو سلطة كنسية أو شخصية معاصرة أن تعدِّل أو تنسخ التقليد الآبائي السائد والمتَّبع.

لذلك أصبحت هذه السمة اللاهوتية قوة أرثوذكسية قادرة أن تصالح، وترفع الخلافات، وتجمع وجهات النظر، وتقنِّن كل منهج وتقيِّم كل سلوك!

لذلك كان من أهم المبادئ التي ينبغي أن نرسخها في ذهن الخادم وقلبه، أن يجعل معاييره الإيمانية كلها في كافة أنواع نشاطه الروحي قائمة على أساس تعاليم الرسل والآباء.

وهذا بالتالي يحتم على الخادم أن يكون شديد الشغف بدراسة أقوال الآباء، متعمقاً في فهم مبادئهم وأعمالهم ونسكياتهم.

ولكن يجدر الإشارة هنا إلى أن التمسك بالتقليد الآبائي لا يعني الجمود والتمسك بالشكليات، ولكن يعني الالتصاق بالخبرات الإيمانية الحية القوية التي عاشها الآباء ونجحوا في توريثها للكنيسة.

ثانياً: التوازن بين العنصر الإنساني والعنصر الإلهي:

والتوازن في الأرثوذكسية بين العنصر الإنساني والعنصر الإلهي يكاد يكون صفة عامة في كل نواحي الحياة العملية والفكرية وليس في العقيدة فقط. فبينما نجد في الكاثوليكية يبرز الضغط على العنصر الإنساني في الجهاد والخلاص والشفاعة وفي كل شيء حتى التجسد، نجد في البروتستانتية

العكس حيث يبرز الضغط بشدة على العنصر الإلهي في كل شيء، فالخلاص مثلاً يكاد يكون بلا أي جهاد إذ يعتمد في كلياته وجزئياته على المبادرة الإلهية والتأمين الإلهي ولا وجود لشفاعة القديسين على الإطلاق.

بينما في الأرثوذكسية نجد التوازن يبلغ منتهى الحذر والتعقل بين ما هو إنساني وما هو إلهي، فالتوافق والعمل المشترك ووحدة الحركة بين العنصر الإنساني والعنصر الإلهي ضرورة حتمية في كل شيء، في الإيمان والجهاد والنمو والتجديد والخلاص والشفاعة.

هذه هي الدعامة الثانية للأرثوذكسية التي ينبغي أن نبني عليها العقيدة والإيمان والنسك والسلوك وكل شيء. فإذا انتبه لها وجدان الإنسان الروحي وآمن بها والتـزم بوزنها الدقيق، فإنه لن تـزل قدماه أبداً بل ولن يزل عقله أو لسانه.

فالله معنا ما دمنا معه، موجود عند الذين يطلبونه، إن تركناه يتركنا، وإن بكّرنا إليه نجده، إن كرّمناه يكرمنا، وإن احتقرناه نصغر.

والمسيح واقف على الباب يقرع، إن فتحنا له يدخل، وإن نعسنا وتغافلنا عنه يعبر عنا. إن سألناه يعطينا ما نريد، وإذا لم نسأله لا يعطينا شيئاً. إن طلبناه وجدناه في الحال، وإذا لم نطلبه فهيهات أن نجده. إذا قرعنا باب رحمته يفتح دائماً، وإذا جئنا إليه من ضلالتنا فيستحيل أن يُخرجنا خارجاً. إذا جدّدنا ذهننا بالكلمة الحية كل يوم وكل ساعة وعلى الدوام، يتغير شكلنا ليصير على شبه المسيح في القداسة والحق بفعل نعمته خفياً وبالروح القدس. إذا قبلنا سيرة القديسين وشفاعة الآباء والأنبياء وتمثّلنا بهم ودعونا باسمهم، قِبَلْنا عمل الله فيهم ونلنا نعمة الله التي كانت

معهم، لأن من قَبِلَ نبياً باسم نبي فأجر نبي يأخذ، و«أرواح الأنبياء خاضعة للأنبياء» (١كو ١٤: ٣٢). هنا التوازن بين السعي البشري والاستجابة الإلهية يكاد يكون على درجة من الدقة ينذهل لها العقل.

كذلك في النسك وفي السلوك، فبقدر الجهاد تكون النعمة، إذ يستحيل أن يحصل الإنسان على أية موهبة أو فضيلة أو حتى صفة روحية إلا إذا جاهد الإنسان وبلغ في جهاده حد الإيمان الكامل والثقة المطلقة في أنه لا شيء إلا بنعمة الله «أنا ما أنا... ولكن لا أنا، بل نعمة الله التي معي» (١كو ١٥: ١٠).

ومن الناحية الأخرى نجد أن الإنسان حتى ولو بلغ في الموهبة وفي الروح إلى حد الرسولية وتغافل عن ضبط جسده والجهاد حتى الدم ضد الخطيئة وناموسها الرابض في الجسد، فهو حتماً ساقط من درجته، أو كما يقول بولس الرسول أنه يصير «مرفوضاً» «بل أُقمع جسدي وأستعبده، حتى بعدما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضاً» (١كو ٩: ٢٧). هنا الجهاد يبدو وكأنه يؤمِّن عمل النعمة وهذا مذهل أيضاً للعقل! وحتى السلوك اليومي في كافة الأعمال الكبيرة والصغيرة الجسدية والروحية، إذا لم يكن اجتهادنا ونشاطنا وسهرنا وانتباهنا مؤازَراً بالنعمة ومتوازناً معها فالعثرات ستلاحقنا والسقوط يظل يتهددنا، إلى أن نصحح الميزان بين الجهد المبذول والاعتماد على الله!

والمفروض أن هذا التوازن بين ما هو بشري وما هو إلهي لا يقتصر على الأعمال فقط، بل ويلزم أن يتعدى ذلك إلى أعماق الوجدان نفسه. فالإحساس بالخطيئة هو الذي يؤهلنا للإحساس بالنعمة. فبقدر ما نتضع وننسحق على خطايانا بقدر ما نرتفع إلى مستوى عزاء النعمة ونسمو إلى

مستوى دم المسيح لقبول الصفح والغفران. كذلك بقدر ما يكون حزننا على سقوطنا يكون حتماً الفرح الآتي إلينا من فوق. فإذا توقف الحزن والانسحاق بسبب الخطيئة عن البلوغ بنا إلى الإحساس بالنعمة والغفران بدم المسيح، خرج هذا عن المنهج الأرثوذكسي. ومن الناحية الأخرى، إذا حاولنا أن نبلغ إلى عزاء النعمة وفرح الروح دون أن نحصر أنفسنا بالحزن والندم على ما اقترفناه من خطايا وشرور، خرج ذلك أيضاً عن المنهج الأرثوذكسي. فالموازنة الوجدانية بين محصلة الضعف البشري والقوة الإلهية فينا يلزم أن تكون الخلفية الدائمة في كل مراحل حياتنا الوجدانية. فإذا غمرتنا فرحة النصرة والجهاد وبهجة الخلاص، ينبغي أن لا يغيب عن بالنا قط الليالي السوداء التي عبرناها في غمِّ الخطيئة والندم عليها. وإذا داهمتنا الأحزان وحاصرَنا صغر النفس مع اليأس، فينبغي أن نتذكر أن الشمس خلف السحاب والفرح الإلهي قادم إلينا بالعزاء حتماً، قادم إلينا من السماء كطائر الحمام.

ثالثاً: الموازنة بين السلطان الكنسي والحرية الفردية:

هذه السمة الثالثة من سمات العقيدة الأرثوذكسية تُعتبر من أبرز العوامل الناجحة في بناء شخصية الإنسان المسيحي بناءً سوياً.

هنا تقف العقيدة الأرثوذكسية موقفاً وسطاً متزناً بين السلطان الكنسي المطلق والمعصوم عند الكاثوليك، والسلطان الكنسي المنعدم والمذموم عند البروتستانت، كما تقف أيضاً نفس الموقف الوسط والمتزن بين حرية الفرد المتضائلة التي تكاد تكون معدومة بالنسبة للسلطان الكنسي عند الكاثوليك، وحرية الفرد الطاغية على السلطان الكنسي

عند البروتستانت.

فالسلطان الكنسي في الأرثوذكسية يستمد كيانه وصلاحيته واحترامه بل وقدرته الروحية في التنفيذ على موافقة كل فرد في الكنيسة، فالعلمانيون كأفراد وكجماعة لهم النسبة العظمى في اختيار وانتخاب وتقديم البطريرك أو الأسقف أو الكاهن أو الشماس للرسامة، فإذا لم ينطق الشعب كله بحريته واختياره كلمة "أكسيوس" أي "مستحق" للشخص المقدم لأي رتبة كهنوتية فإن رسامته تُوقَفُ في الحال حتى ولو كان المعترض واحداً فقط من ملايين، هنا توقف الرسامة إلى أن يتم التحقيق واستطلاع رأي هذا الفرد الواحد، فإن كان عنده الحجة الكافية ضد المرشح تبطل الرسامة، وإذا كانت حجته غير صحيحة يقطع هذا المعترض لأنه تسبب في بلبلة الكنيسة.

كذلك فإن أي رئيس في الكنيسة — سواء البطريرك أو الأسقف — لا يُنظر إليه في الأرثوذكسية أنه يحكم في الكنيسة بتسلط ذاتي بل يرعاها ويدبرها بنعمة الله، **الله هنا هو الحاكم الوحيد والراعي والمدبر الحكيم أي الأسقف الحقيقي للنفوس**. أما البطريرك أو الأسقف فهو راعي من قبَل الراعي، ومُدبِّر من لدن المدبر، وناظر من تحت الناظر. فالبطريرك أو الأسقف ليست له في الحقيقة رعية خاصة له بل هو يرعى **رعية الله**، ولا هو يدبر أولاده الخصوصيين بل يدبر **أولاد الله**، ولا هو ينظر في شئون عبيد له بل ينظر في شئون **عبيد الله**.

الأسقف عموماً لا يترأس من فوق الكنيسة بل من داخلها، لا كسيد عليها بل كعضو أول فيها تكرمه باقي الأعضاء، لأنه لا يُعيَّن على الكنيسة كأنه ليس منها بل يُعيَّن فيها لأنه أصلاً واحد منها.

والأسقف حينما يحكم ويقطع بكلمة الحق باستقامة لا يحكم ولا يقطع بمقتضى مشورته الخاصة، بل بمقتضى قوانين الكنيسة ونواميسها الثابتة المستقرة، فإذا خرج عنها بطل سلطان حكمه لا في الأرض فقط بل وفي السماء، وهو في الحقيقة يحكم بسلطان المحبة التي يستمدها من إخلاص رعيته التي استأمنه الله عليها والتي أحبته واستأمنته على أرواحها. **فالسلطان الكنسي هنا مستمد من الشعب وعائد إليه. الموازنة هنا بين سلطان الكنيسة وحرية الفرد تبلغ منتهى عمقها وكرامتها التي لا حد لها.**

فالبطريرك أو الأسقف يحكم كمن له سلطان وبمنتهى الثقة واليقين لأنه يستند في حكمه على رضا الشعب وحبه. والفرد يقبل الحكم الكنسي ويخضع للتدبير كأنه من الله رأساً، لأن الذي اختاره الشعب بحريته اختاره الله أيضاً ليقدسه. فالسلطان الكنسي بالنسبة للفرد يعبِّر عن اختيار الفرد والله معاً. لذلك فالفرد يقبل السلطان الكنسي بحريته المطلقة، والكنيسة الأرثوذكسية تقوم كلها على هذه الدعامة. فالسلطان الكنسي فيها لا يعمل صحيحاً إلا في إطار الحرية الفردية.

وليس ذلك فحسب، بل إن السلطان الكنسي قام أصلاً في الكنيسة ليدعم الحرية الفردية لا ليلغيها، فكل القوانين وكل التدابير وكل التعاليم تدور حول حقيقة واحدة وهي ضمان حرية الإنسان المسيحي، ليتحرك على طريق المسيح بدون أي عائق من ذاته أو العالم أو الآخرين إنما في الحدود الإلهية المرسومة في الكنيسة بدقة، التي قام الأساقفة حراساً عليها مدى الأجيال كلها.

إذن فالإنسان المسيحي بوجه عام، والخادم بوجه خاص، ينبغي أن يبني عقيدته على أساس راسخ أنه عضو حي في الكنيسة مسئول مسئولية مباشرة عن قيام السلطان الكنسي فيها قياماً صحيحاً. ثم أنه بالتالي مسئول أمام هذا السلطان يكرمه بكل كيانه ويخضع له بكل إمكانياته، وكما أن الحرية الفردية تزكي السلطان الكنسي كذلك على السلطان الكنسي أن يزكي الحرية الفردية.

رابعاً: الموازنة بين الجهاد الزمني والسعي نحو الملكوت:

مرة أخرى تقف الكنيسة الأرثوذكسية موقفاً متوازناً بين الولاء للوطن الأرضي والواجبات الأساسية للحياة الزمنية وبين الإخلاص للوطن السمائي وواجبات الحياة الأبدية. فبينما تحاول الكاثوليكية أن توطن الملكوت على الأرض حتى جعلت من الفاتيكان مملكة زمانية مستقرة ذات حدود ومن البابا ملكاً أرضياً يتبادل السفراء مع الدول ويشتغل بالسياسة، نجد النقيض في البروتستانتية إذ أنها أجهدت ذاتها وهي تنتظر في لهفة شديدة زوال ممالك الأرض كلها دفعة واحدة وظهور ملكوت السموات بظهور المسيح حتى يختطف الناس من على الأرض ليعيشوا في السماء.

وبين هذه وتلك وقفت الأرثوذكسية على مدى الأجيال كلها تفصل بإيمانها الراسخ ما بين ملكوت قيصر وملكوت الله: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (مر ١٢: ١٧)، وسلمت ساعة مجيء المسيح لله الآب حسب طلب الرب، وانطلقت تخدم في ولاء منقطع النظير لسلاطين العالم سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين أو وثنيين. وفي نفس الوقت ظلت وبنفس القوة والخضوع والولاء تعبد وتصلي وتنطلق إلى الجبال

والقفار والصحاري تكمل واجبها الأقدس نحو ملكوت الله الآتي، فكانت الأرثوذكسية مُعلِّمة العالم كله في فنون التقشف والتجرد والنسك والصلاة. فبقدر ما كانت الأرثوذكسية – ولا زالت – صاحبة النظرة الأولى والعميقة لبطلان هيئة هذا العالم الذي يزول، كانت أكثر أقطار الدنيا تمسكاً بوطنها الأرضي وولائها له!! ومعيارها في ذلك قول الإنجيل: «لا تكنـــزوا لكم كنوزاً على الأرض... بل اكنـــزوا لكم كنوزاً في السماء» (مت ٦: ١٩ – ٢٠).

«فإن سيرتنا نحن هي في السموات، التي منها أيضاً ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح» (في ٣: ٢٠).

«لأن ليس لنا هنا مدينة باقية، لكننا نطلب العتيدة» (عب ١٣: ١٤).

وهذه بعينها هي نظرة الكنيسة الأولى التي يمثلها القول الذي جاء في الرسالة إلى "ديوجنيتس":

[فالمسيحيون يعيشون في أوطانهم، ولكن كنُـــزلاء في العالم، **يشتركون في كل شيء كمواطنين، غير أنهم يحتملون كل شيء كغرباء،** كل أرضٍ غريبة وطنٌ لهم، ووطنهم كأنه موطن غربة] ٥/٥.

إن السر العظيم في هذه الموازنة المدهشة بين القدرة على الولاء للوطن الأرضي والولاء للوطن السمائي هو في المستوى الرفيع الذي بلغه الآباء في التقشف والنسك، والذي من خلاله استُعلنت لهم حقائق وأفراح

والقفار والصحاري تكمل واجبها الأقدس نحو ملكوت الله الآتي، فكانت الأرثوذكسية مُعلِّمة العالم كله في فنون التقشف والتجرد والنسك والصلاة. فبقدر ما كانت الأرثوذكسية – ولا زالت – صاحبة النظرة الأولى والعميقة لبطلان هيئة هذا العالم الذي يزول، كانت أكثر أقطار الدنيا تمسكاً بوطنها الأرضي وولائها له!! ومعيارها في ذلك قول الإنجيل: «لا تكنـــزوا لكم كنوزاً على الأرض... بل اكنـــزوا لكم كنوزاً في السماء» (مت ٦: ١٩ – ٢٠).

«فإن سيرتنا نحن هي في السموات، التي منها أيضاً ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح» (في ٣: ٢٠).

«لأن ليس لنا هنا مدينة باقية، لكننا نطلب العتيدة» (عب ١٣: ١٤).

وهذه بعينها هي نظرة الكنيسة الأولى التي يمثلها القول الذي جاء في الرسالة إلى "ديوجنيتس":

> [فالمسيحيون يعيشون في أوطانهم، ولكن كنُـــزلاء في العالم، **يشتركون في كل شيء كمواطنين، غير أنهم يحتملون كل شيء كغرباء**، كل أرضٍ غريبة وطنٌ لهم، ووطنهم كأنه موطن غربة] ٥/٥.

إن السر العظيم في هذه الموازنة المدهشة بين القدرة على الولاء للوطن الأرضي والولاء للوطن السمائي هو في المستوى الرفيع الذي بلغه الآباء في التقشف والنسك، والذي من خلاله استُعلنت لهم حقائق وأفراح الملكوت الأبدي، فعاشوه وهم على الأرض، واستمتعوا به استمتاعاً يكاد يكون كاملاً وهم يؤدون واجباتهم اليومية بفرح وبلا ملل، فرسموا

أمام الكنيسنة طريق الخلود في صميم مهام الدنيا وواجباتها، وعاشوا الأخرويات والمستقبلات وهم يجاهدون حاضرهم، فعبروا مضنوكين من ثقل الأتعاب الجسدية وعلى وجوههم ابتسامة النصرة وفرحة الدهر الآتي.

***

ولعلنا في هذا العرض السريع والمختصر لسمات العقيدة الأرثوذكسية نكون قد ألقينا شعاعاً نعتقد بالحق أنه ضئيل جداً، ولكنه ربما يكاد يكون هادياً للقادة والخدام، ليكتشفوا على نوره الطريق إلى بناء الخادم بناء عقيدياً سليماً متوازناً يتمشى مع روح الأرثوذكسية وعمقها البديع.

الفصل السابع

البناء الروحي للخادم

(٤)

ثالثاً: البناء الأخلاقي للخادم

نحن هنا بصدد الأخلاق، لذلك يتحتم علينا أولاً أن نسأل: ما هو موضوع الأخلاق والسلوك من المسيحية أو من المسيح؟ هل الأخلاق هدف التدين؟ وهل السلوك غاية رسالة المسيح؟

الجواب: كلا...

فهدف التديُّن هو الحياة الأبدية، وغاية رسالة المسيح هي المسيح نفسه، نعيش معه وله، والمسيح بالتالي هو الحياة وهو الملكوت الآتي «أنا هو الطريق... والحياة» (يو ١٤: ٦).

إذن، ما هو مركز الأخلاق أو ما هي قيمة السلوك لدى المسيحي؟

الأخلاق وظيفة الروح، كما أن النظر وظيفة العين. فالعين إذا كانت صحيحة وقائمة في النور تنظر نظراً صحيحاً، كذلك الروح تماماً فإذا كانت الروح صحيحة وتعيش في المسيح فإنها تفرز أخلاقاً جيدة.

الأخلاق الطيبة هنا نتيجة حتمية لحياة مسيحية صحيحة. لذلك فالإنسان المسيحي يستحيل عليه أن يبحث عن الأخلاق الجيدة أو يسعى وراءها خُلواً من المسيح، المسيح هو سر الأخلاق بالنسبة للمسيحي وهو منبع السلوك.

لذلك فالأخلاق في عرف المسيحية ليست هي مجرد الصدق والأمانة والشرف والصراحة والإخلاص والدقة في العمل والسلوك، بل هي شيء يفوق هذا كله ويتجاوزه، هي المسيح نفسه، هي أخلاقه وسلوكه.

الصدق والأمانة في العرف التربوي الإنساني أمر يتعلق بهذه الحياة الأرضية ليضمن حسنها وبهجتها ويوفر النجاح في تدبير حاجاتها ودوام سعادتها؛ أما الصدق والأمانة في العرف المسيحي فهو أمر يتعلق بالحياة الأبدية أساساً، فالأخلاق في المسيحية لا تعمل لحسن الإقامة في الأرض ودوامها بل تعمل لضمان عبورها وتجاوزها.

الإنسان الدنيوي، في أفضل مراتبه، يصدق في القول والعمل احتراماً لإنسانيته وتكريماً للعلائق التي تربطه بالناس أو لتزداد شهرته أو تنمو تجارته؛ أما الإنسان المسيحي فهو صادق لأنه لا يريد شيئاً على الأرض وأمين في القليل لأنه يطلب شيئاً أكثر، يطلب السماء نفسها. المسيحي يخلص في العمل **إخلاصاً يفوق حاجة العمل، بل يتجاوز قيمة العمل لأن إخلاصه لا ينبع من طموحه في نجاح عمله، بل ينبع من تجاوزه له، فهو يعمل لحساب حياة أفضل من العمل حياة أسمى من الأكل أو الشرب أو المال أو الصيت الحسن «وكل ما فعلتم فاعملوا من القلب كما للرب ليس للناس»** (كو ٣: ٢٣). لذلك فأمانة المسيحي وصدقه وإخلاصه لا يمكن أن يعوقها خذلان بشري أو خسارة أرضية، ولا يمكن أن يوقفها تهديد بالموت أو حرمان من سعادة دنيوية. إنها أخلاق ليست من هذا الدهر، لذلك فهي تفوق في قدرها وقيمتها أعلى مستوى للأخلاق الإنسانية اللازمة لهذا الدهر.

وهكذا نرى أن الأخلاق المسيحية وظيفة روحية للنفس البشرية

تؤمِّن عبورها من حياة حسب الجسد لحياة حسب الروح. وهنا نجد أنفسنا فجأة أمام صميم رسالة الخادم، فالخادم لأنه يعمل طول حياته للانتقال بنفسه وبالآخرين من حياة حسب الجسد لحياة حسب الروح، لذلك أصبحت الأخلاق بمفهومها المسيحي معياراً حساساً للحكم عليه وعلى خدمته في كل ما يقول ويعمل، سواء في مجال الخدمة أو مجال حياته في أسرته أو مجال عمله في مهنته!

ولكي نحدد معالم الأخلاق المسيحية سواء في طبيعتها أو وظيفتها، يلزمنا في كل لحظة أن نفرق بينها وبين الأخلاق الإنسانية في أعلى مستوى لها.

فبينما تنبع طبيعة الأخلاق الإنسانية من **التوازن والانسجام** القائم بين مطالب الجسد وفلسفة الفكر، بين الواقع الزمني وتوقعات المستقبل النسبية، بين الشعور واللاشعور، بين العاطفة والمعقول، بين أعواز الإنسان وحاجة الآخرين، نجد أن طبيعة الأخلاق المسيحية تنبع من **التمايز والتباين الشديد** القائم بين الحياة الحاضرة والحياة المستقبلة أو القائم بصورة حرب دائمة لا هوادة فيها بين مطالب الجسد ومطالب الروح، والقائم أيضاً بصورة عكسية تماماً بين منفعة الإنسان في الدنيا ومنفعته في الآخرة، بين إرضاء الناس وإرضاء الله.

وهكذا نجد أنه بينما الأخلاق الإنسانية هي **حصيلة توازن نسبي** بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان والواقع الزمني وبين الإنسان والآخرين، نجد الأخلاق المسيحية تبدأ **كحصيلة لمضادة كبرى** بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان والواقع الزمني وبين الإنسان والآخرين، وتنتهي بقيام

انسجام مطلق فوق النفس وفوق الزمن وفوق الآخرين «إن كان أحدٌ يأتي إليَّ و(هو) لا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخَوَاته حتى نفسه أيضاً، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (لو ١٤: ٢٦).

والعجيب في الأخلاق المسيحية أنها بالرغم من كونها تبدأ بمضادة كبرى للإنسان مع نفسه ومع الزمن ومع الآخرين، إلا أنها تنتهي بانسجام شديد ومطلق مع النفس والزمن والآخرين وذلك بمجرد دخولها مجال الحياة الأبدية والله، لأنها تتخلص مرة واحدة من كل أنانية ومن كل طموح دنيوي ومن كل تعالٍ وكبرياء؛ الأمور التي تلوث القيمة الأخلاقية، أياً كانت، والتي يستحيل على الأخلاق الإنسانية الطبيعية أن تتخلص منها بالجهد الذاتي بأي حال من الأحوال.

فالإنسان المسيحي حينما يتمسك بالصدق والأمانة والإخلاص تمسكاً شديداً لا هوادة فيه، فهو إنما **يقاوم أنانية نفسه، ويصارع حاجة وطموح الزمن، ويتحدى مستواه إزاء الآخرين**، لكي يرتفع إلى ما فوق نفسه وما فوق الزمن وما فوق الآخرين، أي يصل إلى الله وإلى الانسجام المطلق مع الحياة الأبدية، وحينئذ يعود إلى نفسه بغير حب ذات أو أنانية، ويعود إلى الزمن بغير أطماع وطموح، ويعود إلى الآخرين بغير منافسة أو تعالي. وهنا تبدو الأخلاق المسيحية ليست وظيفة روحية للنفس وحسب ولكن طريقاً سماوياً عَبْر الأرض، يضمن للإنسان نجاحه في العبور على كل حال وفي أشد الظروف تعسراً.

وهنا يهمنا جداً أن نُظهر الفوارق الخطيرة بين الأخلاق الإنسانية الطبيعية في صورها الفاضلة المنسجمة مع ذات الإنسان ومع حاجة الزمن ومع مزاج الآخرين، وبين الأخلاق المسيحية في صورها المضادة للذات

والمضادة للزمن والمتجاوزة لمزاج الآخرين. فالأخلاق الإنسانية الطبيعية وإن كانت تبدو في وضعها الفاضل بصورة جمالية تغذي مبدأ المنفعة العامة للإنسان على الأرض، إلا أنها تعود وتُفرِّغ الروح الإنسانية من كل قيمة روحية ومن كل تعطُّش نحو الله والحياة الأبدية، بل إنها تجعل نفس الحياة على الأرض غير جَدِّية، فهي مجرد أخلاق للمنفعة أو للزينة، كتمثيلية لا تعيش بعد إسدال الستار إلا في خيال الناس.

في حين أن الأخلاق المسيحية بصرامتها تجاه الذات وتجاه الزمن وتجاه الآخرين ترفع من قيمة البيئة الإنسانية ونفسية الإنسان عموماً لتجعلها فوق مستوى المنفعة واللذة والتراب، **تجعل الصدق أهم من العمل، والأمانة أهم من النجاح، والإخلاص أسمى من الصداقة، والعدل أعلى من المصلحة العامة.** هنا الأخلاق المسيحية تبدو كضرورة بالغة القيمة بالنسبة للإنسان، فالعلم والأدب والفن والسياسة والتربية وكل نشاطات الإنسان العقلية والنفسية والجسدية تبدو فارغة ومضلِّلة ومُتلفة للروح الإنسانية بدون العنصر المسيحي للأخلاق، في حين أن العلوم والفنون والآداب والسياسة وغيرها إذا التحم بها العنصر الأخلاقي بوضعه المسيحي المتسامي فوق الأنانية واللذة والمنفعة العامة، فإنه يجعل منها مجالات رائعة للبذل والحب وبالتالي يستخدمها للانتقال بالبشرية من أطوارها الانطوائية المادية المتخلفة إلى المستويات الروحية الراقية التي تصبو إليها.

وبعد هذه المقدمة البسيطة لمفهوم الأخلاق في المسيحية، يلزمنا أن نسأل:

هل الأخلاق في المسيحية قانون؟ أو بمعنى آخر هل هي التزام؟

هنا يتحتم علينا أن نفهم أن المسيحية **طبيعة جديدة للإنسان** فوق مستواه الأرضي ولكنها تنسجم أصلاً مع خلقته الأولى، لأن الإنسان خُلق أصلاً ليعيش مع الله وليحيا معه إلى الأبد. والإنسان لما سقط وحُرِم من الحياة مع الله وقع، وفي الحال، تحت القصاص بصيغة أوامر محددة قاطعة ملزمة، لتهذب طبيعته الحيوانية وتمنعه من التمادي في السقوط والبعد عن الله: لا يكن لك آلهة أخرى غيري - تحب الرب إلهك من كل قلبك - تحب قريبك كنفسك - أكرم أباك وأمك - لا تقتل - لا تسرق - لا تزن - لا تحلف باسم الرب باطلاً - لا تشهد شهادة زور - لا تشته امرأة قريبك - لا تشته مقتنى غيرك.

ولكن المسيح جاء ووهبنا ميلاداً جديداً لطبيعة جديدة روحانية فائقة، وأعطانا فيها الحياة الأبدية التي كانت لنا عند الله والتي كنا قد فقدناها، لقد رفع عنا القصاص بأكمله وبالتالي ألغى الناموس كله «قد كان الناموس مؤدِّبنا إلى المسيح لكي نتبرر بالإيمان، ولكن بعدما جاء الإيمان، لسنا بعدُ تحت مؤدب» (غل ٣: ٢٤ - ٢٥). ولأن الأوامر والوصايا الأخلاقية (الناموس) في العهد القديم روحانية بطبيعتها، لذلك فإنها أصبحت غير منسجمة مع طبيعتنا الساقطة، ولهذا أصبحت بالتالي كقانون تأديبي يعاقب كل من يتعداه بلا رحمة. ولكن الآن ونحن نعيش مع الله في المسيح يسوع بطبيعة حرة منسجمة مع الروح، في جدة الحياة، في قيامة حقيقية في ملكوت سري داخل القلب، لذلك لسنا بعد تحت قانون أخلاقي مؤدب؛ إننا نعيش مع الله في المسيح بأخلاق المسيح، لنا فكر المسيح وطاعته وحبه وروحه، فالطبيعة الجديدة هي التي أفرزت الأخلاق المسيحية!

الأخلاق المسيحية إذن ليست هي قانوناً مُسلطاً علينا، بل وصايا محببة تنسجم مع روحنا، مع تطلعاتنا إلى السماء، مع طبيعتنا الجديدة. محبتنا للمسيح واتحادنا به وشركتنا في الحياة الأبدية جردت القانون الأخلاقي الأول من سلطانه وسطوته وإلزامه وعقوبته بل ومن طبيعته. فالناموس الذي وُضع أصلاً ليهذب الطبيعة الحيوانية لم يعد صالحاً لتهذيب الروح: «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح» (يو ٣: ٦)، محبتنا للمسيح وشركتنا في النور جعلتنا نتجاوز الأمر بعدم القتل إلى عدم البغضة أصلاً بل ونتجاوز بغضة الأعداء إلى محبتهم. تغيُّر الناموس هنا مرتبط بتغير الطبيعة، لقد ذاب القانون الأخلاقي تحت وطأة المحبة الملتهبة للمسيح في الوضع الجديد. الأخلاق المسيحية لا تقع الآن تحت بنود قانون يجاهد الإنسان ليعيش بها، وإنما هي صفات ملازمة لطبيعة الإنسان الجديد لا يستطيع أن يحيا بدونها.

محبة المسيح جعلت الصدق طبيعة جديدة للإنسان،

محبة المسيح جعلت الأمانة وظيفة حيوية للروح لا يمكنها أن تعيش بدونها،

محبة المسيح جعلت الإخلاص والوضوح والصراحة في كل شيء صفة ملازمة للإنسان قولاً وفكراً وعملاً، يموت إن هو خالفها أو تخلى عنها.

إذن، فالأخلاق المسيحية لم يعد لها روح القانون الأول وصرامته بل هي طبيعة الإنسان الجديد، هي مسرته، هي حبه الذي يمارسه في كل المجالات، هي سر المسيح الجديد العامل والفعال في قلب الإنسان المولود من الروح، هي الأجنحة النورانية التي وُهبت من الروح القدس جديداً

للنفس البشرية لتلبسها وتعبر بها من الأرض إلى السماء.

إذن، كيف تُبنى الأخلاق والسلوك في المسيحية، هل بالقوانين والتداريب والجوائز والعقوبات؟

مستحيل طبعاً، لأن هذه الوسائل لا تبني إلا الأخلاق الطبيعية التي تتناسب مع الطبيعة الإنسانية فقط، ولا تخطُّ في النفس إلا انطباعات من السلوك تتلاءم مع قدرات النفس وحسب. فالقوانين والتداريب والجوائز والعقوبات تشكل الطبيعة وتهذبها وتدرب السلوك وتحدده، ولكنها يستحيل أن ترفع الطبيعة فوق ذاتها أو تخلق أنواعاً روحية من السلوك تفوق الطبيعة الحيوانية.

صاحب السيرك يلجأ للقوانين والتداريب والجوائز والعقوبات ليرفع من مهارات الحيوانات إلى أقصى ما جُبلت عليه طبيعتها من طاقات وحركات وذكاء، ولكن يستحيل على صاحب السيرك أن يخلق في الحيوانات بالتداريب طبائع فوق طبيعتها كأن تتكلم مثلاً أو تضحك.

الأخلاق المسيحية المطلوب للنفس المسيحية أن تلبسها ليست أصلاً من طبيعة الإنسان الحيوانية، إنها صفات روحانية، لذلك يستحيل أن تنمو طبيعياً أو تترقى بالتدريب. إنها ليست مهارات بل مواهب: الصدق في المسيحية موهبة، الأمانة في الفكر والقول والعمل موهبة، والإخلاص والوضوح والصراحة موهبة، المحبة الطاهرة التي بلا رياء موهبة، هذه المواهب تُعطَى بالروح وتنمو بالروح وترسخ في النفس البشرية بالروح.

ولا سبيل إطلاقاً أن تنمو الأخلاق المسيحية وترسخ في النفس إلا بالعشرة القلبية مع المسيح بالصلاة الدائمة والحب، حينما نصمم أن نحيا بالروح ونُسلِّم أنفسنا وعقولنا لكي ننقاد بالروح، حينئذ يأخذ الروح ما

للمَسيح ويعطينا.

الخادم يصير صادقاً صدقاً مسيحياً حينما يذوق صدق المسيح فيسري في عروقه ويختم قلبه وفكره.

الخادم يصير أميناً أمانة مسيحية حينما تُستعلن له أمانة المسيح وتنسكب في أحشائه وتختم كل أعضائه.

الخادم يصير مخلصاً وفياً واضحاً صريحاً طاهراً حينما يستقر المسيح في قلبه ويملك ويختم على عواطفه ووجدانه.

الفصل الثامن

البناء الروحي للخادم

(٥)

رابعاً: الاختبار الروحي في حياة الخادم

إن كل ما قدمناه عن بناء الخادم في كافة المجالات النفسية والروحية، يمهد للاختبار الروحي الصحيح، والاختبار الروحي في الحياة المسيحية كما اختبرته الكنيسة الأولى وكما عاشه الآباء الروحيون هو قوة الحياة الجديدة. ونحن نقدم هنا المفاعيل أو الانطباعات التي تلازم هذا الاختبار:

١- شعور روحي جارف بحضور الله.

٢- انفتاح القلب بفرح لذيذ لكلمة الإنجيل تصل إلى حد الجوع والدموع.

٣- تصديق لوعد كلمة الله بيقين شديد يُبرز عمل الرجاء إلى أقصى قوته.

٤- الإحساس الواقعي بشخص المسيح الحي، كرفيق حلو، فتصبح محبته كالنار في القلب.

٥- تفجُّر الحاسة الإيمانية بنشاط ذهني وجسدي وروحي تجعل الإنسان كارزاً بلا أي مؤهلات سابقة، بل وعلى مستوى الاستعداد للشهادة والبذل حتى الموت.

٦- التيقُّن من سُكنى الروح القدس في القلب، والتيقظ لأهمية قيادته والاعتماد عليه.

٧- انتباه حاسة إدانة النفس وكشف خطاياها أولاً بأول بتدقيق لا هوادة فيه.

ويؤسفنا أن هذه المفاعيل أو الانطباعات الروحية يستحيل أن يوضع لها منهج بالكلام، فهي مفاعيل سرية لاختبار روحي عميق لا تستطيع الكلمات أن تُدخل الإنسان إليه. ومهما دققنا في الوصف فهو لا يمكن أن يحيط به أو يصل إليه.

وربما تستطيع الكلمات أن تصف هذه المفاعيل وتُشوق القلب إلى قيمة هذا الاختبار الروحي وانطباعاته، فتقنع الإنسان بضرورتها. ولكن يظل السؤال: كيف يذوق الإنسان الاختبار الروحي؟ فهذا عمل من اختصاص الإنسان مع الروح القدس.

مواصفات للاختبار الروحي

المواصفة الأولى

مدى التحرر الذي ناله الإنسان إزاء العالم الحاضر:

الذي نُحذر منه القارئ لئلا يقع فيه هو أن الاختبار بانطباعاته السابقة ليس وليد عواطف ولا هو يأتي نتيجة تداريب، ولكنه "**طريق**" و"**حق**" و"**حياة**".

طريق يستحيل أن تطأه أقدامنا إذا كانت سريعة المشي في طريق العالم الواسعة.

وحق لا يمكن أن ينكشف لروحنا إذا كانت روحنا قد ارتبطت بأباطيل العالم.

وحياة لا يشرق نور مجدها علينا إذا كنا قد اكتفينا بحياة الدنيا وأمجادها.

وواضح من هذا أن الاختبار الروحي يتطلب جهداً سلبياً ضد العالم. إذن، فالدخول إلى الاختبار الروحي يتوقف على مدى تحرر الإنسان داخلياً من الارتباطات التي تشده إلى الأرض. وتحرُّر الإنسان هنا يتوقف على مدى جهاد الإنسان مع روح الله كل يوم، بل كل ساعة، بل كل لحظة ضد طرق هذا العالم الملتوية وأباطيله وأمجاده الكاذبة.

يقول القديس مقاريوس من جهة هذا الاختبار الروحي كلمات

جديرة بالانتباه:

"النفوس التي يكون حبها لله متأججاً لا ينطفئ تكون مستحقة للحياة الأبدية، لذلك تصبح أهلاً أن تُعتق من الشهوات، وتنال بصورة كاملة **شركة الوحدة السرية غير الموصوفة مع الروح القدس في ملء النعمة** (الاختبار الروحي). أما النفوس المدلَّلة فبسبب كونها تعيش في الجسد ولا تطلب القداسة بمثابرة وصبر، تجدها لا ترجو أن تشترك مع روح العزاء (الباراكليت)، ولا ترجو البصيرة أو الملء أو الكمال، ولذلك فهي لا تنال الانعتاق من الشهوات، ومثلها النفوس التي بعد أن تكون استحقت عمل النعمة الإلهية تنخدع للشر وتستسلم إلى الاستهتار والتهاون".

أي أن الاختبار الروحي يبدأ بحب نحو الله متأجج يدوم بالمثابرة، هذا الحب المتأجج كفيل أن يعتق الإنسان من شهواته. وحينئذ يتأهل للدخول إلى الاختبار الروحي الذي يسميه القديس مقاريوس **"شركة الوحدة السرية غير الموصوفة مع الروح القدس في ملء النعمة"**.

المواصفة الثانية

مدى ارتباط الإنسان بالمسيح:

المسيح يطلب بل يطالب كلٍ من يتبعه، أو بالحري كل من يسعى نحو الخلاص أن يحدد موقفه منه أولاً وقبل كل شيء!

+ «أتحبني؟ أتحبني؟ أتحبني؟» (يو ٢١: ١٥ - ١٧).

+ «بعْ كلَّ مَا لَكَ... وتعالَ ٱتبعني» (لو ١٨: ٢٢).

+ «دَعِ الموتى يدفنون موتاهم، وأما أنت فاذهب ونادِ بملكوت الله» (لو ٩: ٦٠).

+ «من أحب أباً أو أماً أكثر مني فلا يستحقني. ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني» (مت ١٠: ٣٧).

+ «إن كان أحد يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأَخواته، حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (لو ١٤: ٢٦).

+ «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي» (يو ١٤: ١٥).

+ «أما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟» (مر ١٤: ٣٧).

+ «ثم قال للتلميذ: هوذا أُمُّك» (يو ١٩: ٢٧).

إذن، فالمسيح يطالبنا بموقف واضح محدد من جهة علاقتنا به حتى ندخل معه وبواسطته إلى حقيقة وقوة الخلاص الذي نسعى إليه. ومن كلام المسيح يبدو لنا أنه لا يرضى ولا يقبل إلا أن ترتفع علاقتنا به لتصبح أعلى من كل علاقة مع أي إنسان آخر مهما كان هذا الإنسان، وأهم من كل شيء آخر في الدنيا مهما كان هذا الشيء حتى ولو كان رزقنا بل حياتنا «لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟» (مت ١٦: ٢٦).

هنا، في الواقع، **دخول إيجابي للتحرر** الذي حاولنا أن نبلغه في "الوصفة الأولى" عن طريق سلبي، لأنه بمجرد أن نجعل المسيح في حياتنا أهم من كل إنسان وأهم من كل شيء حتى الحياة نفسها، حينئذ ينكشف لنا **الحق** تلقائياً أو كجزاء ومكافأة حاضرة وسريعة «والحق **يحرركم**».

في الوصفة الأولى نجاهد مع الله ضد الدنيا وشهواتها وضد الجسد وشهواته لنتحرر من نيرهما، وفي الوصفة الثانية نرفع المسيح في حياتنا وفي ضمائرنا فوق الدنيا كلها وفوق النفس فندخل إلى الحق مباشرة وتحل فينا قوته فنتحرر تلقائياً من كل ما هو باطل.

ولكن أي الوصفتين أسبق؟ أو لماذا جاء الجهاد السلبي قبل الجهاد الإيجابي؟ هذه ضرورة في الكتابة، لأن الاثنين ينبغي أن يعملا معاً وبالتالي يلزم أن يبدآ معاً.

ولكن الذي ننبه ذهن القارئ إليه أن تحديد موقفنا من المسيح هو بحد ذاته قوة ابتدائية دافعة تجعلنا ندخل إلى الحق من أسرع وأقصر طريق. ومعرفة الحق الذي في المسيح ليست نظريات وعظية بل قوة فائقة، قوة محررة يفوق سلطانها قوة الفعل والمنطق والإرادة والطبع والعادة! فقوة الحق الذي نناله بواسطة علاقتنا الحبِّية مع المسيح هي **قوة حياة** بل هي ملء الحياة الأبدية التي تتحدى الموت.

إن قوة الشهداء الذين استشهدوا على اسم المسيح استمدوها من معرفة الحق الذي في المسيح الذي أحبوه وعاشروه، ولم يكن يدري مُعذِّبوهم أن الحق الذي فيهم هو هو الحياة الأبدية التي حررتهم من كل ارتباطاتهم بالدنيا ومن الخوف من الموت، فكان دمهم شهادة لصدق اختبارهم الروحي.

وهكذا نرى أن علاقتنا بالمسيح تحدد مدى صلاحيتنا للدخول في الاختبار الروحي.

مدى استعداد الإنسان لمقابلة الله؟

الاختبار الروحي هو دخول في الحضرة الإلهية. فما هو استعدادنا للمواجهة؟

قد يكون هناك اشتياق شديد للوجود مع الله وتوق إلى الحديث معه، بل وقد يكون هناك سؤال جريء لرؤياه، ولكن ما هو مدى استعدادنا الداخلي لهذا الوجود أو الحديث أو الرؤيا؟

ثلاث عوامل أساسية تمهد للمواجهة:

١- بساطة القلب أو نقاوته:

وهنا لا ندخل في مفهوم البساطة والنقاوة النسكية، ولكن في الاختبار الروحي بساطة القلب تعني تصديق ما لا يُصدَّق، والإيمان بالمستحيل فكراً وعملاً، والإيقان بأمور لا ترى.

ومن هذا يتبين أن العقل المحاجج والفكر المتمسك بالمنطق والإرادة الجبانة معطلات كبيرة في طريق الاختبار الروحي.

٢- سرعة القدرة على تخطِّي الحوادث وتجاوز المظاهر:

فالله يتواجد في كل الظروف وفي كل المواقف وفي كل مراحل الحياة فإذا لم يكن لدينا استعداد أساسي لمواجهة الله في الحزن والألم والمرض والضيقة والإخفاق بنفس الانفتاح وبنفس السرعة التي نراه فيها في الفرح والسلام والصحة والمسرة والنجاح، فإن دخولنا في الاختبار الروحي يتخلخل ويضعف حتى يتلاشى. فالوجود مع الله لا ينبغي أن يوقفه أية

رسالة أو حديث آخر مهما كان هاماً أو خطيراً، ورؤية الله لا ينبغي أن تمسحها من ذاكرتنا أو من قلبنا أية رؤية أخرى مهما كانت جميلة أو مسلية أو أخاذة.

٣- الاستعداد لمقابلة الله في الآخرين:

«مَنْ يقبلكم يقبلني» (مت ١٠: ٤٠)، «الحق أقول لكم: بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم» (مت ٢٥: ٤٠).

من الشروط الأساسية التي لا يمكن تجاهلها في الاختبار الروحي أن يكون لدينا منذ البدء الاستعداد القلبي لرؤية الله في الأخ المتألم أو الأخت المتألمة، في الطفل اليتيم الجائع، في الأرملة المسكينة المحتاجة، في مريض المستشفى، في طريح الأرصفة على الشوارع، في الغريب، في العاجز، في المضطهد، في المظلوم، في كل إنسان بلا تمييز.

هكذا شاء المسيح الذي هو صورة الله أن يجعل من هؤلاء البائسين صورة له. حتى تصبح مقابلة المسيح وبالتالي مقابلة الله عَبْر خدمة هذه الوجوه الحزينة الجائعة المظلومة والمريضة مقدمة سهلة للدخول في أعماق الخبرة الروحية. فالأعضاء الضعيفة والمتألمة في جسم المسيح المصلوب للعالم ينبغي أن تبرز في مقدمة اهتمامنا إن كنا نريد أن ننال شرف رؤيا المسيح الممجد.

«يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشاناً فسقيناك؟ ومتى رأيناك غريباً فآويناك، أو عرياناً فكسوناك؟ ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك؟ فيجيب الملك ويقول لهم: الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم» (متى ٢٥: ٣٧ -

٤٠). هنا يقدم لنا المسيح الاختبار الروحي في أبسط وأعمق صورة.

المواصفة الرابعة

مدى استعداد الإنسان للشهادة للحق:

معروف أن الدخول في الاختبار الروحي معناه الدخول في "الحق" الذي هو ملء وقوة الحياة الجديدة التي وهبها لنا المسيح.

كما أن ميلاد الإنسان في هذا العالم يضع على عاتقه واجبات. ومن أهم هذه الواجبات وأولها هو الدفاع عن هذه الحياة ضد كل من يريد أن ينزعها منه. كذلك بالنسبة للإنسان الذي يريد أن يدخل مجال "الحق الإلهي" والحياة الأبدية فإن أول واجب يوضع عليه هو أن يكون على استعداد للشهادة للحق، **أولاً** شهادة ضد الباطل أو ضد كل ما يريد أن ينزع عنه هذا "الحق"، **ثانياً** شهادة لكل من يريد أن يعرف الحق الذي فيه أو من كان على استعداد لقبوله.

لذلك فالاختبار الروحي يتعذر حدوثه بالنسبة لإنسان يمالئ الباطل ويخشاه. كذلك فإن الاختبار الروحي يتعثر جداً بالنسبة لإنسان يرفض أن يكون على مستوى الشهادة الكارزة «**نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا**» (أع ٤: ٢٠). هنا، الشهادة ليست إلزامية لأنها واجبة أو ضرورية فقط أو لأنها عمل فاضل أو فضيلة أو لإرضاء الله أو الضمير، ولكن لأن الشهادة هي شهادة "**للحق**"، فهنا في الواقع استحالة أن يمتنع الإنسان عن الشهادة للحق لو أنه في "الحق" أو "الحق فيه".

لذلك أصبح استعداد الإنسان للشهادة "للحق" من كل القلب وبكل الفكر والإرادة والقوة مواصفة أساسية للدخول في الاختبار الروحي.

الخادم إذا دخل الاختبار الروحي بحسب مواصفاته السابقة يصبح موصلاً جيداً لله ولكلمة الإنجيل وشاهداً لا يُجارَى للحق الإلهي.

الكنيسة الأولى كانت مزدحمة بشهود أقوياء أفحموا الفلاسفة والعلماء وأذهلوا القضاة وأرعبوا الحكام والولاة بمنطقهم وحجتهم وعلمهم وصلابة إرادتهم مع بساطة الحملان ووداعتهم، إنها كانت مفاعيل الخبرة الروحية للحياة مع المسيح.